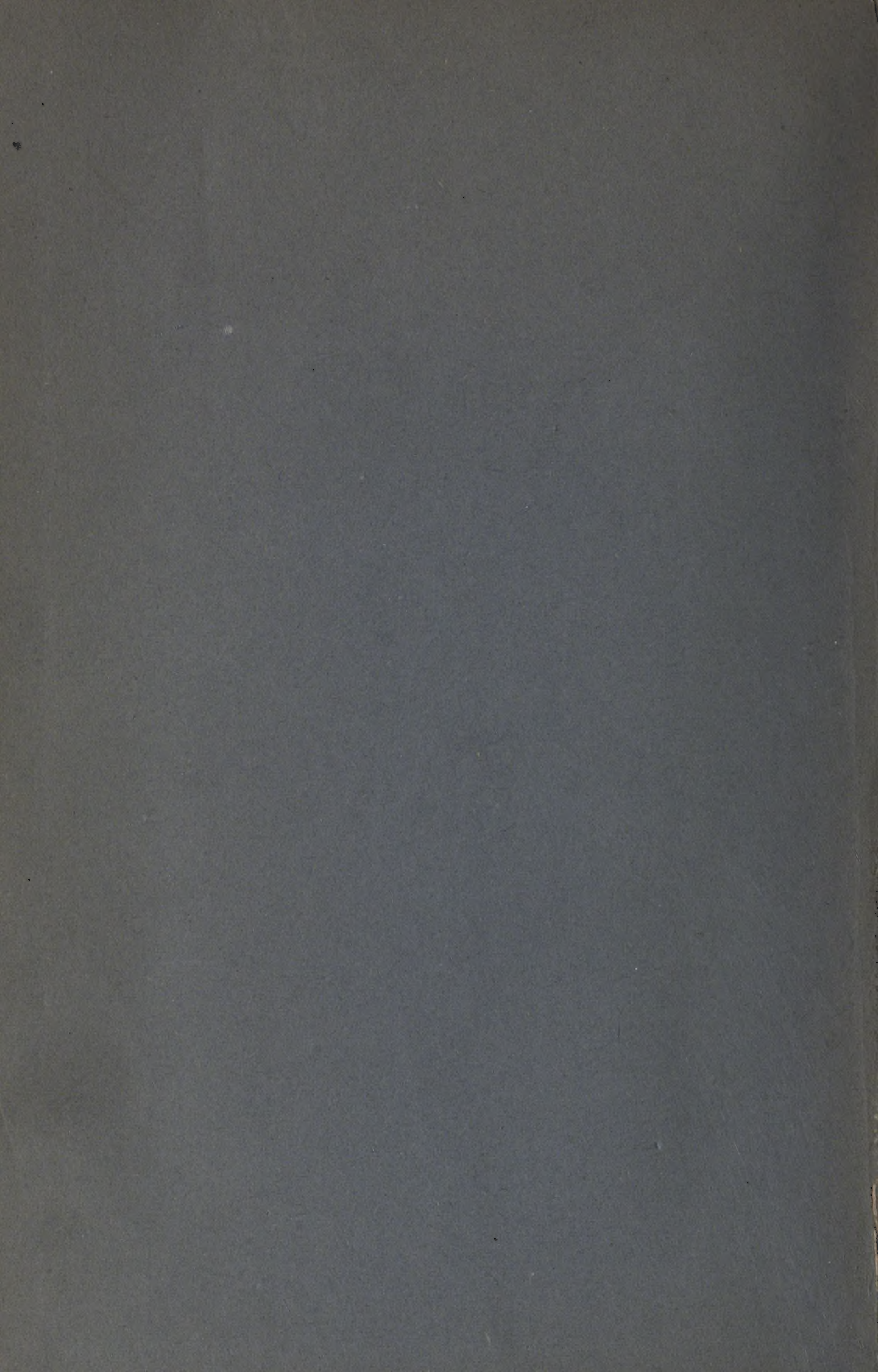
رحلة الصيف

الى

بلاد البوسنة والهرسك

لدولة

الامير الجليل محمد علي باشا





رحلة الصيف

الى

بلاد البوسنة والهرسك

لدولة

الامير الجليل محمد على باشا

مصححة بمعرفة الفقير اليه تعالى محمد طه سليم البشرى
أحد علماء الازهر الشريف

المطبعة الاميرية بمصر
١٩٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهمّ أبدعت هـذا العالم على أجمل صنع وأكمل نظام وأودعت مشاهده من سر وجودك ماعرفك به جميع الأنام فما من شئ الا يسبح بحمدك و ينزهك عن موارد الخيالات ومخاطر الأوهام وجعلت فى كل جوهر وعرض من بارع المبتدَع وروائع المخترَع مالا يحصى من الآيات على وجوب وحدتك ومالايستقصى من البرهانات على تخصيص التأثير بقـدرتك فلك الحمد ومنك التوفيق اليه ولك الشكر وبك الاستعانة عليه والصلاة والسلام على سيدنا محمـد الذى ناضـد للحق وجاهر وجاهد فى الله وهاجر وأوضح الطريق القويم وهدى الصراط المستقيم وعلى آله وصحابته ومن درج على طريقه وسنته (وبعـد) فكثيرا ماارتحلت الى البـلاد الاوروبيـة وجبت أقطارها وزرت عواصمها وشارفت مدائنها حتى أدركنى السأم من معـاودتها والملل من التراداد عليها والاختلاف اليها ولما لم يكن لى بدّ من السياحة لترويح النفس وتبديل الهواء واستطلاع ماتحويه جوانح البلدان من مجالى الطبيعة ومناظرها ومجانيها البديعـة ومخابرها والوقوف على أخلاق النـاس المتباينى العنـاصر والعوائد والمتفـاوتى المشـارب والعقائد وكنت أجد من نفسى جنوحا عظيما وميلا أكيدا الى زيارة الاقطار الشرقيـة فرأيت أن أتمم رحلتى فى عام ١٩٠٠ بمـا يبلغ بعض ذلك المأرب ويحقق ان شاء الله من تلك الأمنية ولقـد كان وصـل الىّ من قبل أن بلاد البوسـنة والهرسك قد أصابها قسط من الحضارة العصرية وأن قد أنشئت فيها السكك الحديدية وأقيمت فى مدائنها الفنادق والمطاعم وغير ذلك مما يجد المسافر معـه من وسائل الراحة ووسائط الرفاغة ماربما لم يجده فى كثير من البلاد الشرقيـة بيد أنها مع ذلك لاتزال ناقصـة أمورا كثيرة مما نشاهده فى بلادنا وفى غيرها فان من قصد الى الموازنة بين فنادق تلك البـلاد وغيرها من المدن المتحضرة تجلى له الفرق محسوسا سواء كـان

فى ضخامة البناء أو وثارة الاثاث أو وفرة المعـدّات أو غضارة المشاهـد ونضارة المنـاظر والمعاهد كما أنه لو عمد عامد الى المقايسة بين الخطوط الحديدية فى تلك الاصقاع وبينها فى مصر مثلا لوجد أنها لم تبلغ فى تلك مابلغته فى هذه من تمام الاستعداد وكمال النظام اذ ينقصها ماهو فى السكك الحديدية اليوم أشبه شئ بالضروريات كالعربات المخصصة بالنوم والمعدّة للاكل . وقد نجد مثل هذا الفرق فى المطعومات أيضا . واذا كان ذلك فى أهم مايعتنى بشأنه عادة فلأن يكون فى غيره أولى . ولـكنى بالرغم عن كل ماذكر بل وعن كل ماعساه أن يعترضنى من المتاعب ويعرونى من المشاق كنت أشعر دائما بزيادة الميل ومضاعفة الرغبة الى ماأزمعت الرحلة اليه من تلك البلاد حتى أن صادف أنى كنت وجناب السير (رنل رود) نائب جناب (اللورد كرومر) المندوب البريطانى فى مصر على ظهر اليخت (أسبرن) وتجاذبنا أطراف الحديث فيما يختص برحلتى الى تلك البـلاد (بلاد البوسـنة والهرسك) وكاشفته بعلى الى ذلك فما هو الا أن شرح لى من محاسن هذا السفر وفوائده مااستخلف الميل بالعزم واستبدل التردّد باليقين والجزم وقد زاد ذلك تعضيدا انى كنت كلما تحدّثت مع أحد فى هذا الشأن أجده مرتاحا اليه باعثا بالمشورة عليه وانما قصدت أولا الى بلاد البوسنة والهرسك دون غيرها من سائر البلاد الشرقيـة لأجد منها عونا على اجتياز البلاد الأخرى التى هى أدنى منها حضارة وأقل مدنية بل وأقشف منها إهابا وأخشن جلبابا ولكى تكون أول سلم أتدرّج به الى ماقصدت له واعتزمت عليه . هذا ومما أذكره مقرونا بالأسف انى كنت قبل هذه العزيمة كلفا بزيارة بلاد المغرب من نحو الجزائر وتونس واسبانيا خصوصا وأن المأسوف عليه الموسيو (كوجردان) الذى كان معتمدا سياسيا لفرانسا فى مصر قد كان طلب الىّ أن أتطوف بهاتيـك الجهات وأراد أن يكون ذلك بصـفة رسمية حيث التمس ذلك من حكومتـه التى أجابتـه الى طلبته غير أنه عرض لى اذ ذاك من الموانع ماستدعى تأجيل هذه السياحة الى فرصة أخرى ان شاء الله . وأذكر من تلك الموانع أن الرعايا المسـلمين فى تلك البـلاد كانوا وقتئذ مهتاجين على حكومتهم ولو أنى وجدت فيما بينهم وهم يعرفون أنى أمير مسلم

وشقيق الجناب العالى الخديوى لكان يخشى أن تدب حمية البداوة فى أعراقهم وتثور ثائرة نفوسهم سيما وأن العوائد الشرقية حاكمة على الشرقيين بما عساه يخالف العوائد الغربية من نحو وجوب الرعاية عند اللياذ والحماية وقت العياذ

الشروع فى السفر الى بلاد البوسنه والهرسك

لما أن قضيت سياحتى فى أوربا عام ١٩٠٠ وانثنيت من باريس معرّجا على (ويانا) عاصمة بلاد النمسا شرعت هنالك فى رسم خطة أسير على مقتضاها فعنّ لى أولا أن أجعل مبدأ سيرى الى بلاد البوسنة والهرسك من «ويانا» الى «بودابست» عاصمة بلاد المجر ثم منها الى «بنيالوقا» ومنها الى «ياسى» فالى «طراونيق» ومنها الى «سراجيفو» عاصمة بلدان البوسنة ثم استأنف منها السفر الى «مسطار» عاصمة الهرسك ثم منها الى «متكوويتش» ومنها عن طريق البحر الى «قطارو» كيما أشرف على مرائى الطبيعة البيضاء فى بلاد الجبل الاسود وعلى الخصوص عاصمتها «ستينيا» لعلى أنفح الروح بنفثة بين نورها البليل وأتنسم جوّها الصاحى ونسيمها العليل ولكن مع الأسف لم يسمح لى الدهر من الوقت بأكثر مما يسع زيارتى لبلاد البوسنة وتجوّلى فى أطرافها ووقوفى بطرائفها وارسال النظرات الى مجالى الطبيعة تتغادى بين الانجاد والاغوار وتتهادى بين الاغصان والأزهار . من أجل ذلك أضربت عن السير على هذه الخريطة وتغانيت بالسياحة فى بلاد البوسنة اذ كان مبدأ سيرى اليها من «ويانا» الى «بودابست» ومنها الى «زابتكا» فمنها الى «بوسنه برود» ومنها الى «سراجيفو» فالى «طراونيق» فالى «ياسى» ومنها الى «بنيالوقا»

مبارحة ڤينا الى بلاد البوسنة

فى صباح اليوم الثامن من شهر سبتمبر عام ١٩٠٠ عزمنا بحول الله ومعونته على مغادرة ڤينا قاصدين الى بلاد البوسنة والهرسك التى كانت يومئذ محط رحالنا ومرمى آمالنا واذ ذاك ما كان أجدر فُنْدُق (الامبريال) الذى أكرم منزلنا وأجمل مثوانا بنظرات وتأملات يصحبها الأسف على مفارقة مناخه الجميل .

وكان فى انتظارنا بالباب مركبة وهى وان كانت من مركبات الكراء غير أنها لاتقل فى حسن المنظر وجمال الزخرف عن غيرها من العربات الخصوصية . وما كدنا نمتطى متنها الوثير حتى أخذت تنهب بنا الارض نهبا . وعجيب أن تسير مثل هذا السير الحثيث على بلاط (ويانا) الذى عفت آثاره فأصبح من تقادم العهد عليه عوجا وأمتا ! وما زالت كذلك تنتهب طرقات العاصمة وشوارعها حتى اذا لم يبق بيننا وبين (المحطة) الا قيد عشرة أمتار رأينا الحوذى قد أبطأ فى السير وقلل من السرعة ولا نعرف لذلك سببا اللهمّ الا أن ميدان (المحطة) الفسيح كان مزدحما بجماهير الناس وغاصا بجماعات المسافرين وقد قضى حسن نظام الحكومة أن تحفظ مع هذا التزاحم راحة المسافرين مما عساه يحدث لهم لو تركت العربات وسرعتها وخلت الحوذيين وشأنهم . وعند ذلك تقاضى الحوذى منا أجره وهو اثنان ونصف من الفولورينات فأخذه وعلائم البشر تلوح على جبينه . واذكر اننا قطعنا مابين الفُنْدُق و (المحطة) فى مدّة لاتربو عن العشر دقائق بفضل السرعة التى ذكرناها آنفا . ولما ان دخلنا المحطة وهى محطة الحكومة المسماة «استنابنهوف» التى منها يؤخذ الطريق الى بلاد المجر التفت فلمحت ترجمان الفندق الذى كان قد سبقنا مع الحاشية اليها . وهنا اذكر مافات القارئ من تعرّف من كان معى فى تلك الرحلة وهم صاحبى العزيز محسن بك راسم وثلاثة من المهنة وهم محمد جعفر الشماشرجى والخيال المشهور «دولت» الجركسى ومحمد أغا الكروجى وتخيرنا هذا الأخير لان أصله من الجبل الاسود وله المام بلغة السلاف ليكون ترجمانا لنا فيما نحتاج اليه مما تتعادى معرفته علينا من لغة القوم

قطار السكة الحديد

وحينما وافت الساعة الثامنة والدقيقة الخمسون كان قطار الاكسبريس الذى يمرّ فى طريقه ببودابست متجها الى بلاد البوسنة متأهبا للمسير متهيأ للرحيل وكنا أرسلنا ترجمان الفندق من قبل ليحجز لنا محلا من المحال المخصصة فى عربات ذلك القطار عما لايزيد عن ثلاث أنفس ولكنه جاء بعد آسفا وأخبرنا بأنها قد ضاقت

على الراكبين بما رحبت وان ليس لنا مجال فيها ولا نصيب منها . أما حاشيتنا فانها سكنت الى الدرجة الثانية وأما أنا وصاحبي فما لبثنا نفكر كيف نصنع ولا مناص من السفر حتى هدينا الى أن نحبو القومساري بشيء من النقود هو في مجاري عاداتهم أشبه بالضروريات وما هو الا أن نزعت بالرجل همته وخفت به حلاوة العطية فرادنا الى حجرة تسع ست أنفس بدلا من ذوات الثلاث فاستخلفنا والحمد لله الفضة بالنضار واستبدلنا الدرهم بالدينار ولم يزل بنا حتى أغلق بابها لكيلا يشاركنا فيها غيرنا فسرنا منه ذلك كثيرا وزادنا سرورا ماتُهِيَ الينا من أنا سنلازم تلك الحظيرة حتى حدود البوسنة مع ان العادة في هذا السفر قد جرت بتنقل الركاب ثلاث مرات في غضون المسافة . على أنا لم نكُ لنطمئن على مجالسنا تمام الاطمئنان خشية أن يدفع الزحام ببعض المسافرين الى مساهمتنا في تلك الحجرة الرحبة بالرغم عن رقابة القومساري لنا واحتفاظه بنا وحرصه على أن لا يصل الينا مانكره وان لا نرى الا مانحب . ولقد كان ان بعض الناس جاء الينا وحاول أن يزج بنفسه بيننا ولكن مانشب يحاول ان رأى له متسعا فيما زيد أخيرا على عربات القطار اذ اتفق من حسن الصدفة ان ناظر (المحطة) قد اضطر بسبب وفرة الركاب الى أن يضم اليها مافيه الكفاية لركاب الدرجة الاولى وتلك لعمر الله عناية عظمى ما كان أحوج جماعة المسافرين في راحتهم اليها . وقد استغرق هذا العمل من الزمن ما أفضى الى تأخير قيام القطار عن ميعاده المعتاد نحو أربع وأربعين دقيقة . والذي كان يشارف عربات الدرجة الثانية والقطار مندفع بقوة البخار . يرى النمساويين الذين جرت عادة أغلبهم بأن لا يتفوقوا الا هذه الدرجة يتغادون في سراديبها ويتراوحون في دهاليزها . وما فتئ ابن البخار يشق بنا احشاء القفار حتى وصلنا الى حدود بلاد المجر في زمن غير بعيد . وهنا استودعنا في بلاد النمسا ذلك القومساري الذي ذكرنا عرفه وبينا لطفه وأطرفناه باثنين من الفلورينات وهي طريقة مقبولة في عرفهم قلما تجد واحدا منهم يأباها . فانبعثت فيه روح نشاط جديدة كان منها ان ختم خدمته وتوج جميله بوصاية رصيفه المجري الذي خلفه عند ملتقى الحدود . فلما زارنا ذلك الخلف أول مرة للتفتيش على التذاكر

قرأنا فيه عنوان بلاده واستطلعنا منه طلع معشره اذ كان ضخم الجثة أسمر اللون طويل الشارب . وكان مما يلفتني الى هذا الرجل انى وجدته يلبس فى يديه قفازين أبيضين فاستغربت وليس موضع الغرابة الا كونه مع هـذا من عملة السكة الحديدية ! ولقد لاقانا هذا القومسارى من بشاشة الوجه وطلاقة المحيا بما لا نرتاب معه فى اننا سننال من تعهده لراحتنا مانلنا من أخيه النمساوى وكان ما يتدفق فى افئدتنا من السرور به أضعاف ما يلوح على وجهه من البشر بنا . وكنت وصديقى محسن بك نتجاذب آونة أطراف الحديث ونتوارد طرف السمر ـ وما ألذ التحادث فى السفر ـ وآونة نلزم الصمت ونسرح فى مسارح الخيال حتى نام صديقى ونمت وما أحوج المسافر الى النوم والراحة ولكن كيف ينام من ليس مطمئنا فى مقامه ولا حرّا فى منامه . بل كيف يملك راحته مسافر وفى القطار مثل رئيس المفتشين ذلك الرجل الجافى الطبع . الغليظ القلب . فانا بعد ان أخذنا مضاجعنا باغتنا أى مباغتة وفاجأنا أى مفاجأة . نعم فاجأنا بما ينبو عن الأدب ومالا يجمل بالمعاملة وحظر علينا اقفال الباب من الداخل فكان ذلك سببا فى كدر صفونا وامتعاض نفوسنا حتى وصلنا الى (بودابست) وقد بلغ منا التبرم به والتذمر من أخلاقه حتى أنا لنتحرش به تحرش الاسد بالفريسة . ولكن ماعسانا نصنع ولاحيلة لنا الا امتثال ماأنبه عليه . وأشار اليه . على انه لم يصل اليه منا بادرة سوء اللهم الا اذا كان التحلم معه واسلاس القول له بعث فى نفسه روح الشر فركب معنا متن الغرر وقد قيل الحلم يفسد من أخلاق اللئيم بقدر مايصلح من أخلاق الكريم

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

كأنى بالقارئ يلاحظ علىّ تعرضى لذكر دقائق الامور وجزئياتها وما أدراه أن صغائر الاشياء عنوانات جلائلها والفرد الواحد قد يكون نموذجا لكل شعبه واذا كان غرضنا أن نقف على عادات القوم وأخلاقهم فلا سبيل لالتماسها الا من أفرادهم سيما صغارهم الذين لايحسنون المواربة ولايجيدون المماراة فيتسنى للمستطلع أن يستجلى منهم مايريد أن يستجليه صافيا نقيا لاتشوبه شائبة الغرض وقد قيل ان قلب الجاهل وراء لسانه كما أن لسان العاقل وراء قلبه

ومما أذكره انه لما حان وقت الظهر ونحن فى أثناء الطريق جاء الينا الخادم المخصوص بعربة الأكل ليسألنا عما نحتاج اليه ولعلمى من العادة هنالك أن السياح يذهبون الى الطعام على دفعتين أوفدت خدمى فى الدفعة الاولى التى كانت توافق الظهر تماما أما أنا وصاحبى فانتظرنا أمد الثانيـة التى تكون والساعة واحدة وربع بعد الظهر

فى غــرفة الطعـام

حتى اذا ما جاء ذلك الوقت سارعنا الى عربة الأكل ولم يكن فيها اذ ذاك الا سـيدة ومعها ابنتـاها ويظهر عليهن انهن من العـائلات الكريمـة والاسر الخطيرة فى بلاد المجـر لما على وجوههن من مسحة الشرف وسـيماء الامارة . وما كدنا نسكن الى مجالسنا حتى وافانا الخادم الذى ظن اننا فرنساويون حينما سمعنا ونحن نتكلم باللغة الفرنساوية . فأوعزنا اليه أن يأتينا (بشوربه) فأمهلنا زهاء نصف ساعة كان فى غضونها يغدو ويروح بغاية السرعة لانه على ما كان يظهر لى هو القائم وحده بحاجات المسافرين . ولذلك كان يتصبب عرقه ويتقاطر على وجهه فيضطر الى تخفيفه بغلالته حتى اشمأزت نفوسـنا من هذا المنظر . على ان (الشوربة) التى أحضرها بعد لم تكن بالسائغة وقد أردفها بسمك كان كذلك غير مقبول فتنحينا عنهما ـ لا بطرا ـ وطلبنا خبزا بغير إدام عسانا ندفع به الخلة ونسد به الرمق . وفيما أنا أتلفت اذ وقع نظرى على خادم آخر وادع فى مكانه لا عمل له الا فتح الزجاجات . وأظنه حبس نفسه ووقف شغله على هـذا العمـل ليفلت من عناء الخدمة التى يكابدها رصيفه . وبعد برهة من الزمن لمحت على الكونتيسـة علائم الرغبـة فى أن تنفرد هى وكريمتاها الى طاولة على حـدة وحينذاك أوعزت الى صديقى أن يدعوهن الى (ترابيزتنا) حيث نتنحى عنهـا الى غيرها غير أن هـذا الرأى لم يصادف عنده الذى كنت أرجوه منه ولم يبلغ من نفسه ما بلغ من نفسى فاعتـذر الىّ بأن حاجتنـا ونحن مسافرون داعيـة الى الاحتفاظ بهذه (الترابيزة) فى سفر لا يقل طول مسافته منذ هذه المشورة الى منتهاه

عن أربع وعشرين ساعة خصوصا وأن مستهل سياحتنا ومطلع سفرنا كان كما عرف القارئ أوّلا لكثرة الزحام مدعاة الى القلق ومنآة عن الراحة . ويعلم الله ان رأى صديقى لم يكن ليثنى رأيى ولا ليفل غرار رغبتى وخصوصا بعد ما رأيت من حسن شيمها وجميل صنيعها . فانى لما طلبت الى الخادم خبزا فى المرة الثانية لمحت واحدة من ابنتيها تشير الى والدتها ولايعلم الا الله حينذاك ما كانت تقصد اليه ولكنا مالبثنا ان أهدت الينا الكونتيسة سلة فيها خبز فعرفنا مغزى اشارة تلك الفتاة الرؤفة الى والدتها الشفوقة العطوفة وكانت تلك الهدية المقبولة والمنحة المبرورة أدعى الى خجلى وأبلغ فى أسفى وتمنيت لو انى كنت البادئ بالمعـــروف

وقف القطار على محطة (بست) فنزل اليها قصادها من الركاب وخلف من بعدهم خلف من المسافرين الذين كانوا وقوفا على رصيف (المحطة) ينتظرون هذا القطار فخشينا لكثرتهم أن يضيق القطار بهم فيضطر بعضهم الى مزاحمتنا فى محلنا فنقع هنا فيما كنا نتوقاه هنالك . وقد قام من هذه (المحطة) قبل قيام قطرنا اثنان آخران أحدهما اكسبريس الشرق الذى يكون مبدأ سيره من باريس ويمر على ذلك البلد متجها الى اسلامبول . والثانى يبتدئ منها قاصدا الى «بوخارست» ولما نزح كل من القطارين براكبيه التفت فلم أر فى فناء (المحطة) غير نفر يسير . منهم ثلاثة يلبسون الطربوش على عادة الشرقيين . فصبوت الى معرفتهم وظهر لى أنهم من بلاد البوسنة وأنهم على نية الاوبة الى أوطانهم وقد امتطوا متن الدرجة الثانية ــ ولم تكن وابورات النمسا لتشتمل الا على الدرجتين الاولى والثانية ــ فصادف ركوبهم حيث يركب خدمنا . وبعد قليل علم أولئك البوسناويون «البكوات» ممن كان معهم من الخدم أننا شرقيون ثم تدرّج بهم التبحث عنا الى أن سألوا عما اذا كنا مسلمين أو لا فأجيبوا بأننا مسلمون . هنالك أنساب أولئك النفر فى الخدم يؤنبونهم تأنيبا ويبكتونهم تبكيتا على ترديهم شعار الغربيين وتنحيهم عن شارة الشرقيين . هذا ما كان بلغنى من رفيقى محسن بك الذى أرسلته لاستطلاع أمرهم وكنت احتطت لمثل ذلك من قبل ونبهت على خدمى بأن لايشعروا بنا أحدا

ولكنى مذ سمعت من رفيقى ماجرى خشيت أن يكونوا نسوا ذلك التنبيه فأعلموا القوم بحقيقتنا ولكن والحمد لله زال ما كنت أخشاه حين علمت بأنهم لم يعرفوا عنا الا أننا تجار

وكنت ونحن فى بلاد المجر على جناح الطائر الميمون الذى كان كثير الرسو على (المحطات) انتهز الفرص فى اختلاس النظرات لأرى رجال تلك البلاد بشُعُرِهم وأزيائهم التى تختلف - بالطبع - باختلاف جهاتهم كما كنت أرى ذلكَ فى غير هاتيك البلاد ولكن مع الأسف لم يقع نظرى هنالك الا على فتيات أحداث كنّ يتراوحن ويتغادين فى تلك (المحطات) ليبعن المسافرين مابأيديهنّ من صنوف العنب والخوخ حتى وصلنا الى «زابتكا» ومن هذا البلد ينقسم القطار الى قسمين والمسافرون يتناولون وقتذاك طعام العشاء غير أنى وصديقى لم نشارف الخوان فى ذاك الآن بل أجلنا ذلك العشاء الى وقت المغرب حاسبين انا نجريه فى بلدة «جالا» التى وصلناها وكان للحديث الفضل فى قطع المسافة اليها من غير مانصب ولا لغوب . وماوصلناها حتى عمدنا الى فتح باب غرفتنا وكنا أسرع مايكون تحدرا الى محل الأكل فى (المحطة) وماكنا لنسرع الا لأن القطار لايقف ثمت أكثر من ربع الساعة

دخلنا الى المطعم واذا الشوربة تنتظر سائغها والسمك يترقب آكليه وهنالك صحفة لحم مصنوع (بالصلصة) ويسمى هذا عندهم (بالجولاش) صنف معتنى به فى طعومهم وهو أشبه شئ بما يسمى فى عرف المصريين (بالياخنى) وقد وجدنا فى هذا الصنف من طيب النكهة ولذاذة الطعم ماأضربنا به عن غيره من الشوربة والسمك . بل قد بلغ منا استحسانه ان ذهبنا بأنفسنا الى محل المطبوخات ورجينا طاهيه أن يزيدنا منه ويكثر . ولكن مع الأسف الجأنا الافراط من تطعُّمه الى الافراط فى شرب الماء الزلال ريثما نكسر به شرة الحرارة التى أثارها فى جوفنا هذا المأكول اللذيذ . ولست أدرى أن لذاذة هذا المطعوم جاءت الا بما يضيفون اليه من التوابل الحارّة كما يفعل السودان بطعامهم المشهور المسمى لديهم (بالويكه)

ثم نادى منادى (المحطة) حيث اذن القطار بالمسير فسارعت لأقضى ثمن المأكولات الذى كنت أحسبه كثيرا بالنسبة الى وفرتها فلم يتقاضوا الا مبلغا يسيرا فى جانب ماطلبنا من الأكل الكثير !

القيام من محطـــة «جالا»

سار الوابور بسم الله مجراه واندفع كأنه السهم يشق كبد الفضاء وليس له من هدف الا بلاد البوسنة . وكنا نشرف من خلال النوافذ ونرسل النظرات الى أراضى تلك البلدان فنجدها منبسطة ميثاء لاتقل فى استوائها عن أراضى الوجه البحرى فى مصر . وما كاد الليل يحلق بجناحيه فى السماء وينشر ديباجه الحالك فى ثنيات الفضاء حتى بدا محيا القمر . وكأنه مملك نخم . أناف بسراة قصره . وأشرف على رعائه من خلال ستره . فأرسل عليهم ماشاء أن يرسل من هبات آلقة وأياد بيضاء . وما أجمل هذه المناظر فى نفس المغترب المسافر . ثم لم يمض على مسير القطار أكثر من ساعة حتى دانينا نهر (الدانوب) واذ ذاك خارت عزيمة البخار ووهت قوة قوائمه فرقا من منظر ذلك النهر المهول الذى لايقل بعد مابين عِبْرَيه ولا تضيق مسافة مابين شاطئيه عن مثلى النيل عند (كوبرى) كفر الزيات . وهنا يذهب العجب بالقارئ كل مذهب اذا قلنا له انه ليس على ظهر ذلك النهر (كوبرى) ولا ممرّ ولا قنطرة ولا مَعْبَر والقطار لامحالة واصل . من الساحل الى الساحل . يسبح على مَهَل . أم يجرى على عجل . أم يطير فى الهواء ؟ وقد يعيا به حمله ! أم يقتعد متن الماء ؟ وقد يهوى به ثقله ! . ذلك ما كان يأخذ بالالباب ويذهب بالاحلام . ولكنهم قد قالوا اذا عرف السبب بطل العجب وليت شعرى لقد كانت العلة هنا أغرب والسبب أخفى وأعجب . فلم يزل بنا القطار حتى استوينا الى شاطئ النهر وما هو الا أن وافت اليه سفينة بخارية حتى حاذت مكانه ووصلت بقضبانها قضبانه واذ ذاك آوى القطار اليها واستوى بجملته عليها . ولا يستطيع واصف أن يشرح مابلغت تلك السفينة من الطول والمتانة وغير ذلك مما يدل على تمام الحذق فى الصنعة وكمال الاتقان

فى الابداع بأكثر من أنها وسعت ذلك المسافر الطويل وحملت على عاتقها هذا العبء الثقيل دون أن تضيق ذرعا بامتداده العظيم ولا أن تتأثر لحمل جسمه الجسيم وما استوى على متنها القطار حتى أخذت تمخر العباب وتشق بحيزومها جوانب الحباب فاختلط الحابل بالنابل واشتبه علينا المحمول بالحامل وسرت الجارية وقد ألهب أحشاءها من النار السعير وان أعيى قدميها من الماء الزمهرير حتى اذا وصلت الى الشاطئ الآخر ووقفت منه موقفها من الاول ألقت رحلها ووضعت حملها فأعملت يد سائق القطار مفتاحه فسار الهوينا يسل ثيابه من ثيابها . ولقد كنا من ساعة امتطى القطار متن الجارية بنت البخار نرسل النظرات تلو النظرات فنستطلع فى مرآة الماء ما كنا نقرأه فى صحيفة السماء فكان من فوقنا نجوم غرّاء ومن تحتنا كواكب زهراء

وما أجمل القمر وهو بين هاتيك الكواكب كأنه القائد الحاذق تحف به الاجناد يلحظ بعينيه النجلاوين كل مكان ويرمقه شغفا به كل انسان فما كان أجلى الطبيعة وأجملها فى مجاليها البديعة وما كان أحرى المشاهدين لكل هذه المناظر الباهرة بالاندهاش وأجدرهم بالعجب والاستغراب ولا سيما الذين لم يجتلوها غير هذه المرّة فكان تعجبهم منها أكثر واستغرابهم لها أشدّ وأكبر ومنهم رفيقى الذى ما كنت أنظر الى وجهه الا قرأت فيه آيات الدهشة ورأيت عليه سمات الاعجاب

الوصول الى حدود البوسنة

ولما أن وافت الساعة الحادية عشرة ونصف قبل الظهر وصلنا بعونة الله الى محطة «بوسنه برود» التى هى حدود بلاد البوسنة وفيها ينتقل الركاب الى قطار آخر ولكنه يسير على خطوط ضيقة كالخطوط الزراعية فى بلادنا . وقبل أن يحين موعد القطار الثانى ذهبت لأبحث عمن يتقاضى قيمة الفرق ما بين الدرجة الاولى فى القطار الذى بارحناه ومضاجع النوم فى القطار الذى سنركب فيه فهديت الى أن ذلك يكون عند العامل المخصوص بصرف التذاكر . وعند ذلك عمدت اليه

فألفيته مشتغلا ببعض المسافرين الذين سبقونا لمثل مآربنا فوقفت بحكم الضرورة أنتظر ريثما ينصرف هؤلاء وفى غضون ذلك كنت أجد مستخدمى (المحطة) مترّدى الثياب التركية حتى خلتنى وأنا بينهم فى بلاد عثمانية أو بين معشر أتراك . وقد ألفت نظرى هنالك رجل نيّف بطوله على المترين وعرفت أنه حَرَسِىٌّ من أنه كان يلاحظ النظام . وأذكر أنه لم يقع نظرى فى تلك الجهات على رجل فى طوله . أما من كانوا يتوافدون على (المحطة) من الاهالى فملابسهم فى الغالب كملابس الكروجيين (وهى السلطة والسروال) غير أنهم يتعممون بعمائم حمر . وقد لاحظت على فتيانهم أنهم يضعون العمائم على فودهم فتكسو ناحية من الرأس وتدع باقيها مكشوفا حاسرا وأظن أن منشأ ذلك هو الاعجاب بزهو الحداثة ومَخِيلَة الشباب وينتعلون فى أقدامهم أحذية كأحذية (أولاد البلد) عندنا وهى المسماة (بالمراكيب) غير أنها غريبة فى شكلها اذ كانت ذات نعل سميك ممتد بطول القدم يقوم على جوانبه سياج من الجلد وهو أقل ارتفاعا من المعروف هنا ويختلف فى ملابس الاغنياء عنه فى ملابس الفقراء بفرق قليل هو أن أولئك يضعون فى زمن البرد عليه غطاء من الجلد آخذا من رؤوس الاصابع الى مايدانى مفصل القدم . وهؤلاء يتخذونه من الخرقة ونحوها وعلى كل حال يشدّ ذلك الغطاء بأربطة على ظهر القدم . وكنت أرى فى نفس أولئك القوم وداعة وفى أخلاقهم لطفا وفى عرائكهم لينا ولعل ذلك كان من أنهم لايمرّ بهم السياح كثيرا كما يمرّون بغيرهم فيجدون منهم ائتلافا وبهم ائتناسا

وبينما نحن على افريز (رصيف) المحطة نروح ونجىء ريثما يحين وقت الركوب واذا رجل من أهالى تلك البلاد يتأثر قصصنا ويتبع حركاتنا يسير اذا سرنا ويقف اذا نحن وقفنا فما ارتبنا فى أن هذا الرجل من المخبرين السريين ولعله يرقبنا لكونه رآنا لابسى (الطربوش) ويجوز أنه لو لم يرنا على ذلك الزى لم يتتبعنا كل ذلك التتبع

ثم انه اقترب منا وسألنا عن أسمائنا وبلادنا فما وسعنى الا أن أخبره بأسماء صاحبى وحاشيتى أما أنا فأعطيته اسمى الذى تعوّدت أن أتسمى به فى سياحاتى

وهو (محمد أحمد بك) وبعد ذلك سألنا عما اذا كانت هذه أول سياحة لنا فى بلاد البوسنة ؟ وهل نحن متوجهون بعد الى «مسطار» عاصمة الهرسك ؟ … وانما عنى بهذين السؤالين وخصوصا الاخير منهما لواقعة حال لانرى بأسا من ذكرها وهى أنه موجود فى «مسطار» كما هو موجود فى غيرها مدارس للرهبان يدرسون فيها علومهم ويبثون عقائدهم وفضلا عن ذلك فهم يدعون الى النصرانية من يقع تحت أيديهم من المسلمين وقد وقع أن تدين بدينهم ثنتان من النساء المسلمات واستدعى ذلك أن دب الهرج والمرج فى جماعة المسلمين هنالك وبلغ منهم الغيظ والتذمّر مبلغا عظيما ولكنهم رأوا من العقل والاناة أن يرفعوا شكواهم الى جلالة امبراطور النمسا الذى لم ير أن يهدئ نفوسهم ويسكن ثائرتهم الا بالسكوت عنهم وأن يغلق فى وجه تلك الفتنة هذا الباب . فلم يجبهم على شكايتهم بجواب . فحسب ذلك الرجل اننا جئنا من تركيا بهذا الصدد ولذلك كان يدأب بسعيه على كشف الحقيقة ويتبحثنا بما لايقل عن سعى المخبرين ولا أظنه الا كذلك . ولما لم تكن (مسطار) مما عولنا على ارتياده فى خطتنا الثانية أخبرناه بعدم ذهابنا اليها واكتفائنا من هذه السياحة بزيارة بلاد البوسنة . فبرقت أسارير الرجل وظهرت على جبينه علائم الفرح والسرور . وأخذ يحيينا كما يحيى رب البيت أضيافه وطفق يشرح لنا مزايا السياحات وما يعترض المسافر من التعب والراحة وما فى بعض البلدان الأوروبية من غرائب التحف وعجائب الطرف . فقلت له أرح نفسك . فيما أزل لنا المغفور له والدنا من النعمة تطوفنا بلاد أوروبا وجلناها شرقا لغرب وجبناها شمالا لجنوب ووقفنا على مافيها وعرفنا مابين دفتيها . وكان حديثنا باللغة الألمانية . وكنت ألاحظ أن بين جوانح الرجل دعة وفى معاملته لطفا وأدبا

ركوب قطار البوسنة الى سراجيفو

ولما أزف الترحل ودعنا الرجل وودعناه وركبنا القطار حيث وفانا القومسارى وذهب بنا الى المحل المعدّ لنا . وانى مبين للقارئ كيفية عربات النوم

فى بلاد البوسنة وما ألاحظه عليها . أما تلك العربات فقد ذهب البسناويون فى شكلها وهيئتها مذهب الامريكانيين فى عربات «بولمن كار» تقريبا وكانت العين الواحدة تشتمل على أربعة مقاعد أخذ كل منها بزاوية من زواياها الاربع ولم تدع الا الطريق الذى يرسم بينها شكلا صليبيا بقدر مايسع مرور الراكبين وليس على المسافر عند ارادة النوم الا أن يعمد الى تلك المضاجع فيقلبها فيستحيل كل اثنين منها الى سرير واحد للنوم . وقد أعدوا على كل سرير وسادة وغطاء خاصا بالسفر ويسمى (بُرْغان) وستورا اذا أرسلها المضطجع تكون حجابا بينه وبين غيره بحيث لايراه أحد كأنه فى غرفة منزله . ولقد كنت أعالج أقفال باب العربة قبل أن يسير القطار حتى نطمئن بعدم دخول أحد الينا غير أنى لم أتمكن من ذلك لأن غرفتنا كانت ممرا الى غيرها فأبت ضرورة المرور الا أن يبيت الباب مفتوحا وأن لا نبيت الا قلقين . ومما الاحظه أنه لم يكن فى ذلك القطار — على كثرة عرباته — الا محل واحد للغسيل وآخر لقضاء الحاجة مع أن حاجة المسافرين داعية الى أكثر من ذلك . كما أنى كنت الاحظ ان ركاب الدرجة الاولى فى بلاد البوسنة كركابها فى بلاد النمسا قليلون ولعل ذلك كان سببا لتقليلهم من عربات هذه الدرجة اذ كنت أرى القطار الذى تبلغ عرباته نحو العشرين ليس فيه الا اثنتان من الدرجة الاولى . سار القطار وأنا منبسط النفس منشرح الصدر لما علمت أنى سأملك راحتى فى مدة السفر التى كانت من وقت قيام القطار الى حين وصوله لاتقل عن ثمانى ساعات . وما توسد صديقى محسن بك وسادته حتى أغرق فى النوم وحتى أنى كنت أسمع له غطيطا عاليا وأما أنا فحينما آويت الى سريرى ورأيت أن الستار الذى كان يخيل الىّ أنه حجاب منيع بين النائم وغيره لا يكفى فى ردّ البصر وستر ماوراءه عن عيون الناظرين سيما الذين يهمهم التجسس على أحوال الناس وترقب خبيآتهم أسفت أسفا عظيما . ومن ذا الذى لا يبلغ منه الاسف مبلغه منى اذا بات وقد أمسى هدفا لسهام الانظار وغرضا لما عساه يعرض فى السفر من الاخطار . ولما حضر القومسارى استودعته تذاكرنا حتى لاتكون داعيا الى ترادده علينا بقصد التساؤل عنها . غير انا استعضناها منه بتذاكر مرور نجتاز بها أبواب (المحطة) اذا نحن وصلنا

وأنبهناه الى أن يوقظنا عند الساعة الثامنة صباحا ثم انصرف ممتثلا الى حيث شاء فلم يبق الا أن اعمد الى اطفاء سراج الغرفة لعلى أجد من وراء ستور الليل الحالك ما أتغانى به عن ستور القطار فأنام مستريح الخاطر مطمئن البال (وقد تعودت أن أنام وليس فى ردهتى شعاع) وما ذا كان يفيدنى اطفاء المصباح ومصابيح السماء تملأ باشعة ضيائها الفضاء ونور البدر الساطع يخطف باشعته الآلقة انظار الرائين وبالجملة فكل ماتداركته من ضروب الحيطة للنوم والهجوع قد ذهب ادراج الرياح . ومما أطال أرقى وزاد فى قلقى أن السرير لم يكن مستوفيا شرائط الراحة حتى أفضت بى الحال الى أن أبيت بملابسى العادية الى أن بدت تباشير الفجر . وحين ذلك أشرفت برأسى من خلال النافذة لعلى أتلقى هَبَّات الصبا وأقابل نسمات الصباح . واستجلى ما شاق من مناظر الطبيعة التى تخيلت مع حسنها ونضارتها أنى فى بلاد سويسرا (وما أشبه الليلة بالبارحة) لولا أن سويسرا تمتاز بسعة نطاقها . وامتداد رواقها . وجبالها السامقة المتوجة بالثلوج المتراكبة . ولقد كان الطقس وقتئذ باردا والضباب مخيما فى الافاق بيد أنه كان خفيفا

عادات وأخلاق

وكان يروقنى رؤية الشبان الذين كانوا يمرون اسرابا وعلائم الشجاعة تبدو على وجوههم وازياؤهم فطرية بسيطة غير أنها جميلة . مكشوفى الصدور لاتتهيّب ضلوعهم تغيرات الطقوس ولا تقلبات الاجواء يقتادون بأيديهم أعنة خيولهم التى تغدو وتروح تحت الاحمال الثقيلة على طريق زراعى منتظم الشكل معتدل القوام ممتد بحذاء السكة الحديدية . وخيولهم تلك شبيهة بخيل المهاجرين قصيرة الارتفاع طويلة الشعر ضامرة الجسوم ليست من الحسن والبهجة فى شئ . ومع كل ذلك فهى قديرة على احتمال الاثقال وتجشم الاعمال الجسام . وأما حجمها فكنت أراه وسطا بين الخيل القصيرة فى بلاد اليونان والخيل فى بلاد العرب . وكنت أرى من وقت لآخر جملة من الخيول ترعى فى مراعيها وهى مطلقة

لاتثقل أرجلها القيود ولا أعناقها الاغلال وعلى ظهور بعضها سروج منحورة من الخشب على هيئة غريبة وعلى ظهور البعض أغطية بسيطة . والاهالى الذين يقومون بحراسة بهائمهم ليلا يأوون الى أكواخ وقتية يبتنونها بجزوع الشجر وصنوانها وهى تشبه فى هيئاتها منازل ابناء الصرب حيث أن جزأ كبيرا من سكان البوسنة أصلهم صربيون غير أن ملابس أهالى البوسنة كلهم على طراز واحد من غير تمايز بين الصربى العنصر والبوسنوى العنصر والمكان. والذى يراهم لايشك فى أن فيهم وداعة ومسالمة مع مافيهم من بسالة الاتراك وشجاعتهم . وأما حيواناتهم الداجنة كالخيل التى ذكرناها آنفا وغيرها من البقر والثيران والضأن والمعز فصغيرة الجم ضئيلة الجسم . وقد كنت الاحظ على فلاحيهم أنهم كسالى لاتبعثهم عزمة ولا تنهضهم الى الشغل همة . والذى يقف على أراضى القوم وينعم النظر فى جودة معدنها وخصوبة تربتها وتهيئها للزراعة ولايبصر فيها بذرا ولانباتا لايتمارى فى فتور عزماتهم ويدرك سر تأخرهم وتركهم مصادر أرزاقهم وموارد أقواتهم تناديهم فلا يجيبون !!!

وطريقتهم فى دراسة القمح وشبهه بسيطة عليهم شاقة على خيولهم اذ ليس لديهم (نوارج) ولاهم يعرفون آلات للدراسة بل انما يدرسون بسنابك الخيل . وكيفية ذلك أن يقف أحدهم ويأخذ بزمام فرس أوفرسين ويسوقهما حتى يرسما عليه دائرة هو مركزها والغلة من تحت أرجلهما ولا تزال كذلك حتى يتم الغرض

ولاشك أن فى تلك الطريقة صعوبة كبرى ومشقة عظمى على تلك الخيل البائسة التى حدا بها سوء بختها وشؤم طالعها الى أن وقعت فى أيدى أولئك الغلاظ القاسين

أما حراس أغنامهم مدى نهارهم ففتيتهم الاحداث . وهيئة الرعاة فى تلك الاصقاع كهيئتهم فى بلاد «البلقان» اما النساء المسلمات فيلبسن (الفرجية) من الطراز الذى كان على عهد المغفور له السلطان عبد العزيز . وينتقبن ببراقع تستر كل الوجه غير أن لكل واحد فرجتين بازاء العينين بقدر ماتسع خيوط النظر ولذلك كان من النادر أن يرى الانسان وجوه أولئك السيدات. وينتعلن فى أرجلهن

(الجزم السوارى) ومن عاداتهن أن لايخرجن من بيوتهن ولا يتجاوزن خدورهن الا للحاجات التى تستدعى الضرورة خروجهن فيها كالسياحات مثلا . وقد كنت ألاحظ أنّ أطفالهم صفر الشعور غير أن ذلك لا يصاحبهم الا وهم فى دور الحداثة فاذا ماشبوا اسودت شعورهم . ومما يمدحون عليه رعايتهم لصحة أبنائهم واعتناؤهم بنظافتهم . وقد فاتنى أن أذكر أن رجالهم يجدلون شعورهم ويضفرونها حتى تصير خصلة واحدة يرسلونها على القافية أو ناحية من الرأس . وهى شبيهة بضفائر «التتار» و «الصينيين» ولا أظن الا أنّ تلك العادة سرت اليهم من «المنجول» أو «الها» أو «التركمان» الذين لابد وأن بعضهم مرّوا بتلك الاقطار وسكنوها حينا من الدهر حتى سرت منهم الى أهلها تلك العادة

ولقد كنت كلما وقع نظرى على مناظر تلك البلاد وراقنى جمالها الطبيعى وسرنى ما اشتملت عليه من محاسن الاشياء وطرائفها يبلغ منى الاسف ويذهب بى الجزع على تلك البلاد التى كانت محوطة بسيادة الاتراك مشمولة بحكمهم وقد سلخت منهم وتأمر عليها سواهم

أمّا جبالها فلم تبلغ فى الارتفاع والمنعة مبلغ غيرها ولا يلزم الذى يحاول طلوعها أن يكون أصله من سكان «الالب» ولكنها جميلة الشكل بديعة المنظر تعتليها حواجز كثيرة أغلبها قصيرة الارتفاع وقد أقيمت ثمت لتكون سياجا على مايعلو تلك الجبال من المزروعات . ومما لاأعرفه الا فى تلك الجهات أن كل شئ فيها قصير اللهم الا الرجال . ومن العجيب أن يقع نظرى على ناس لايزيدون عن الستة أقدام طولا مع أنّ نساءهم كغيرهن من المتوسطات فى نساء العالمين وتوسطهن فى الطول لايمنعهن من أن ينجبن أولادا يبلغون طول آبائهم . وقد مررنا ببلدة تسمى «دبك» ومررنا كذلك بقرى كثيرة لان الوابور كان كثير الوقوف حتى على المحطات التى ليس وراءها الا قرية صغيرة لا تزيد أبنيتها على الثلاثة مساكن وذلك لان معظم الركاب كانوا فى الدرجة الثالثة . وكنا نجد الفلاحين كثيرى الركوب والنزول بين تلك القرى . وكنت أرى النساء الصربيات هنالك على ملاحة فائقة وجمال رائع دقيقات الخصر نحيلات القوام شديدات

حمرة الوجوه لكثرة مايجرى فيها من الدم الذى يدل على جودة الصحة ووفرة العافية وهنّ يلبسن السراويل والمتزوجات منهنّ يضعن على رؤسهنّ قلنسوة بسيطة على شكل (العزازية) واللائى لم يتزوجن يلبسنها مطرزة محلاة بشغل (الابرة) ومرصفة بالنقود الصغيرة وبالجملة فالازياء العمومية لا تخالف أزياء الشرقيين . والغريب أن مايضعن على رؤسهنّ يشبه تماما مايلبس بنات قبيلة أولاد النائب فى الجزائر مع ما بين أولئك وهؤلاء من البعد الشاسع والبون العظيم !

قويت شوكة الشمس وأخذت سهامها تمزق جسم الضباب الذى أسلفنا أنه قد مدّ رواقه على تلك الارجاء وأخذت تظهر من تحته المناظر جلية واضحة . فكنت أرى الفلاحين وهم رائحون وقد أودعوا مآكلهم فى سَلَّات كبيرة وأوثقوها على ظهور الحيوانات الشبيهة بالحمُر التى يبالغ فى تحميلها الاحمال حتى لا تظهر هى من تحتها وينتقلون بها من مزرعة الى مزرعة

ومن غريب مارأيت فى أولئك القوم أنهم يركبون خيولهم وهى مسرجة بسروج من الخشب على شكل (جمالون) وبذلك يكون الراكبون مضطرين لأن يتحدروا منها الى أعناق الجياد وتلك السروج تشبه فى شكلها سروج الجمال فى مصر . وقد أخذ تلك الطريقة عن البوسناويين (اسلاوون) الفارس الامريكانى المشهور ونقلها الى بلاد أوروبا فاستفز ذلك غضب الاهالى حتى كادت تستيقظ الفتنة بين القوم

وكنت كلما مضت من النهار فترة أجد المتغادين والمتراوحين على الطريق الزراعى قد كثر عددهم وزادت حركتهم . وأبصر بالخيل وهى تسير فرادى أو قطارا آخذة رأس كل واحد بذنب الذى أمامه كما يرى ذلك كثيرا فى جمال المصريين . ومما يستلفت نظر السائح ويستجلب عجبه قلة المساكن مع سعة الفضاء مما يدل على قلة السكان فى تلك الاصقاع وانى لأحدق للمساكن الصغيرة فألفيها نظيفة جميلة الهندام وهى تحتوى غالبا على طبقتين والسفلى منهما مبنية بالحجر والعليا مدعمة بالخشب وهى معروشة بسقف من الخشب موضوع على شكل (جمالونى) ليكون فيه منحدر للمطر كما هو الشأن فى مساكن الجهات التى يكثر فيها

هطول الأمطار . والأهالى هنالك يتحرون بناء المساكن فى المواطن الغضيرة والمواقع الجميلة كأن تكون على ربوة مخضلة أو بجانب بحيرة مترعة أو وسط غابة ملتفة الاغصان أو على شاطئ نهر ملتطم الأمواج ثم هم يكثرون من عدد النوافذ فى الطبقات العليا كما يزينونها (بالتراسينات) الجميلة . ولما ان وافت الساعة التاسعة صباحا والدقيقة خمسة وعشرون وصل القطار بعونة الله وفضله الى «سراجيفو» عاصمة بلاد البوسنة . وعندئذ نزلنا مسرعين الى (المحطة) لأن الجوع كان قد بلغ منا وقتئذ مالم تبلغ مشقة السفر ولذلك أوعزت الى صاحبى محسن بك بأن يسرع فى تجهيز حاجتنا وتركنا متاعنا عند محمد أغا . وقد صعب علينا أن نهتدى من تلقاء أنفسنا الى الباب الذى يتجوّز الناس منه الى المدينة حيث ان كل الكتابات المرقومة على الابواب مرسومة باللغة البوسنوية ولا خُبْرَ لنا بها ولكن هدانا اليه رجل من سكان تلك البلاد كان مترديا بمثل ملابس العثمانيين غير أنها قريبة من ملابس الاكراد . فلما انتهينا خارج (المحطة) وجدنا كثيرا من الناس ينتظرون مجيء القطار الذى بارحناه ليذهبوا فيه الى «مصطار» عاصمة الهرسك . أما عربات الكراء التى كانت فى ميدان (المحطة) لانتظار المسافرين وقتئذ فمع كونها لاتزيد عن عشر فانها لاتنال من استحسان الراكب الا كما تنال عربات بعض المدن فى القطر المصرى مثل طنطا وبنها . وقد رأينا فيما بين الحوذين رجلا يؤخذ من شكله أنه مسلم فضلا عن كونه كان هادئا وادعا . فقصدناه من بين رفقائه وأشرنا اليه أن يذهب بنا الى فُنْدُق أوروبا وهو يبعد عن المحطة بثلث الساعة للراكبين

مدينة سراجيفو

ولقد رأينا المدينة كمدائن أوروبا سعة وانتظاما وحيث أعدّوا لاستعمارها مااستطاعوا وتركوا بين الابيات من الفضاء ما كفل بظهور مناظرها وتجلى مخابرها . ويجرى فى طرقاتها ترامواى بخارى ليكون وصلة بين (المحطة) وقلب المدينة . وهنالك ترامواى كهربائى كالذى يعهده المصريون غير أن سائقه يقف فى وسطه لا فى مقدمه كما هو الشأن هنا

أما ذلك الشارع الممتد من (المحطة) حتى ميدان المحافظة فواسع رحيب وهو منقسم الى ثلاث طرائق أحدها خصيص بالتراموای وآخر بجانبه للعربات والثالث للدراجات والخيالة . وعلى جانبى ذلك الشارع العدد الكثير من القهوات وحوانيت التجارة تعلوها مساكن عالية و بيوت سامقة يحتوى الواحد منها على أربع طبقات

وما زالت مركبتنا تعدو بنا نستقبل منظرا وندع آخر حتى رأينا ثكنة (قشلاق) عظيمة فخمة الهيئة ضخمة البناء ولمحنا فى فنائها بعض الضباط وقوفا أمام باب حديقة صغيرة . وقد أخبرنا الحوذى أن هذا الباب طريق الى مجتمع الضباط وناديهم الخاص بهم فتجاوزنا ذلك القشلاق وكنا اذا تلفتنا يمنة أو يسرة نرى فوق التلال المعاقل المنيعة والقلاع الحصينة حتى غادرنا ذلك الشارع وأخذنا طريقنا فى الشارع الموصل للفُنْدُق فرأينا فيه من الاهالى والضباط الجم الغفير والجمع الكثير

ولما كان المستخدمون هنالك يرتدون الاردية العسكرية كان يخيل للناظر لاسيما اذا كان من الغرباء أن هنالك حملة عسكرية أو هو بين جيش عرمرم ... وانا لنطوى بمركبتنا هذا الشارع طيا اذ وقفت العربة تجاه الفندق الذى أسرعنا اليه واذا ببابه صاحبه ـ وهو رجل مجرى ـ واقف فى انتظارنا ومعه رئيس الخدمة الذى كان يتظاهر بجانب سيده بمظهر الرئاسة . فطلبنا أن تعدّ لنا غرفتان متداخلتان غير أن كثرة الزحام الذى سنتكلم على سببه بعْدُ لم تبلغنا مثل هذا المطلب فلم يتسن لهم أن يعدّوا لنا الا غرفة نمرتها ١ لى وأخرى نمرتها ٤ لصاحبى فحمدنا الله على وجود غرفتين خاليتين ولو غير متجاورتين فذلك خير من عدم وجودهما مطلقا . ولما أزفت الساعة العاشرة صباحا طلبنا شايا ولبنا ندفع بهما الجوع اذ كنا لم نفطر بعد . فجاءنا رئيس الخدم وحيث سمعنى أتناجى وصاحبى باللغة الفرنساوية أراد أن يكلمنا بها مع أنه لايحسنها بل ينطق بها ركيكة سقيمة وكان لايظن أننا نعرف الالمانية التى هى شائعة فى تلك البلاد كما كنا نظن اننا لو عدلنا فى حديثنا عن الفرنساوية الى الالمانية لعدل معنا اليها . غير أننا أخلفنا ظنه فتكلمنا بها وأخلف

ظننا اذ استرسل فى فرنساويته الركيكة التى كان يحاول بها ـ والله أعلم ـ المماجنة واهما أنه يشرح بذلك صدورنا ويسر أفئدتنا . وفى غضون ذلك وصل خدمنا الى الفُنْدُق وساوموا صاحبه فى أجر محلاتهم حتى عرفوها ولم يخبروا أحدا أنهم تابعون لنا . ثم أحضر لى محمد جعفر الشماشرجى خريطتى (شنطه) فى غرفتى وأردفه واحد من خدم الفندق ليأخذ منا التعاليم المعتاد أخذها من المسافرين فتناولت رقعة وكتبت فيها ان محسن بك من أهالى مصر وانه ليس بموظف بل يعيش بفضل ماله ومحض ثروته وكتبت عن نفسى أنى (محمد أحمد بك) من سكان طنطا فى القطر المصرى وان معنا ثلاثة من الخدم . وبعد ان سألنا ماشاء أن يسأل واجبناه بما شئنا أن نجيب أرسلت من يفتقد واحدا من أخدان التلمذة فى مدرسة النمسا عسى أن نحن ظفرنا به أن يكون دليلا لنا فيما نروم أن نعرفه ورائدا لما نحب أن نكتشفه فى ذلك البلد وهو صديقى العزيز محمد باكر بك الذى أخبرت بعْدُ مع الاسف أنه موجود ببلدة أخرى تسمى «طوظله» تبعد عن «سراجيقو» التى نحن فيها بنحو ثلاث ساعات . وأن لى صديقا آخر وهو المسيو (بترويش) كان حائزا على وظيفة قنصل فى بلدة تسمى «أولونه» من أعمال بلاد الارناؤد . وانه وان لم يكن موجودا بسراجيقو غير أنى أخبرت أن أخاه الصغير موجود هنالك فارسلت اليه من يدعوه لزيارتنا فى الفُنْدُق فانطلق الرسول وعاد مخَبِّرًا بأنه سيحضر بعد ساعة ونصف فوجدت فى هذا الظرف مايسع أن أستريح من وعثاء السفر وأغير ملابسى التى كان غمرها الغبار بملابس أخر وأن أستعمل أيضا (حمام القدم) لولا أن المتاع الذى كنت أنتظر مجيئه تأخر أكثر مما كنا نظن حتى أغضبنى ذلك ودعتنى الحال الى أن أمرت محمدا أغا بأن يستأجر عربة ويذهب بها سريعا الى (المحطة) ليتعجل ذلك المتاع . أما عربة الفُنْدُق التى تنقل اليه أمتعة المسافرين فقد عرفنا أنها لاتحضر الا بعد وصول القطار الثانى حتى تأتى بمنقولات القطارين جميعا . ولما كانت المسافة التى تسع ذهاب محمد أغا ورجوعه لاتقل عن أربعين دقيقة رأيت أن أشغلها بنزع ملابسى وفيها حلقت ووضعت على شاربى آلة تثبيت الشعر وأدليت قدمى فى الماء الساخن (حمام القدم)

المسيو بترويتش

وفيما أنا كذلك اذ جاء رئيس خدم الفُنْدُق وأخبرنى بأن المسيو (بترويش) نفسه قد حضر وانه لبريد الدخول الى والتسليم على . فأوعزت الى هذا الرسول بأن يتمهل بالضيف ريثما أجفف قدمى وألبس ثيابى فما انثنى حتى رجع ثانية يخبرنى بأن الزائر لا يرى بأسا من مقابلتى كيفما كنت فلم أر كذلك مانعا من التصريح له بمقابلتى والحال على ماوصفنا حيث كان الزائر صديقى وقرينى المسيو «بترويش» فجاء الضيف ولكنى لم أجدنى أعرفه بل ولا أحسبنى رأيته مدا عمرى اذ كان هذا شابا ملتف اللحية ! وليس يعلم الا الله مبلغ اندهاشى وحيرتى عند لقاء شخص لاأعرفه على تلك الصورة . ولكن ماعساى أصنع بعد الذى كان فاضطررت الى استقباله والحفاوة به ورجلاى مرسلتان فى الماء والعباءة فوق منكبىّ . وقبل أن آخذ معه بطرف الحديث قدّمت اليه معذرتى عن مقابلته على تلك الحال . وحين اطمأنّ قلبى بأنه أخو صديقى المتغيب أخذت أسأله عن اخوته كيف شأنهم وفى أى البلاد هم فأجابنى بأن أخاه الكبير لايزال فى بلدة «أولونه» والثانى فى «زابتكا» وهذه تبعد عن سراجيفو بنحو أربع ساعات . ولقد كان يدور بيننا ذلك الحديث والرجل مازال لايعرف من يخاطبه حتى رغب الىّ فى أن أعطيه اسمى ليخبر به أخاه على لسان البرق ويعلمه بوصولنا الى تلك العاصمة فلم أر بدّا من أن أوقفه على اسمى الحقيقى غير أنى أظهرت له رغبتى فى أن لايشعر بنا غير أخيه أحدا . وما كدت آتى على هذا البيان حتى نهض قائما واستأنف السلام وقال «أذكر يامولاى انى الآن ماثل بين يدى شقيق سموّ الجناب العالى الخديوى» واذ ذاك لم يسعنى الا أن أقوم كذلك لأردّ له تحيته الجديدة ورجلاى مازالتا مرسلتين فى الماء ثم جلست وجلس وكان الحديث يدور بيننا على موضوعات شتى كنت أجدنى فى خلالها غاية فى السرور والانشراح وخصوصا لما كنت استشف من ذلك الزائر وحديثه ذكرى العهد الاول والسنين الخوالى التى كانت تجمع شتاتنا ونحن اذ ذاك فى طور الحداثه وتضم شملنا هنالك وعائلتنا . وكان من حديثه

أنه أصغر اخوته عمرا وأن سنه لم تزد على أربع وعشرين مع أن الذى يراه لايرتاب فى أنه نيَّف بعمره على ثمانية وثلاثين عاما ! ثم استأذن فى الانصراف ولم يكن شغل مجلسنا هذا أكثر من ربع الساعة ولم يبارح الغرفة الا بعد أن بسط لى رغبته فى أن أنزله منزلة اخوته وأحله محلتهم من العشم فيه والثقة به وأن يكون تحت ارادتى مادمت موجودا فى ذلك البلد . فشكرت له تلك الاريحيَّة وكنت قد طويت العزم على أن أجعل مبدأ تطوافى فى اليوم الثانى خشية أن أشق عليه اذا أنا جعلته فى اليوم الاول وما أريد أن أشق على الرجل وقد رأيت فيه من اللطف والوداعة ماارتحت له واستأنست به غير أنه أبى الا أن أضرب له موعدا قريبا لمصاحبتى فى ارتياد هذه المدينة ولحَّ فى طلبه بما لايسعنى معه الا موافقته فوعدته بأن يحضر الىَّ بعد ساعتين ونصف فانطلق حيث يريد وقد آن وقت الظهر الذى هوميعاد غدائنا فسارعت لألبس ثيابى وانثنيت راجعا قاصدا الى محل الخوان وما جاوزت الغرفة الى الطريق الذى أمرّ فيه بردهة صديقى محسن بك حتى رأيت رجلا يبلغ عمره زهاء الخمسين يقصدنى ولم أكن لأدرى وقت ذاك مايبتغى منى وقد قرأت على جبينه أنه خاتل خادع وما هو الا أن ناولنى بطاقة يعرفنى فيها باسمه وأنه ترجمان وما عرفت من اسمه لأول وهلة وقع نظرى على التذكرة الا أنه (حسين) وبعد ذلك طفق يبين لى أنه يعرف كثيرا من المصريين وبينهم عزت بك السكرتير التركى للجناب العالى الخديوى . فقلت له اليك عنى الآن وانا لطالبوك ان شاء الله عند ماتدعو الحاجة اليك

ولما أعدت نظرى الى تلك البطاقة وجدت أن اسمه المرقوم عليها هو (حسين أولموتث باشا) وعلمنا ممن يعرفونه أن سبب انتحاله هذا الاسم كونه سجن فى البلدة المسماة «بأولوموتث باشا» حينما احتل النمساويون بلاد البوسنة . وكان مطبوعا على ظهر التذكرة أسماء المشاهد التى يجدر بالسياح أن يزوروها . وقد أفادنى كثيرا هذا البيان حيث انتخبت من بين تلك الاماكن الجهات التى استحسنت أن أزورها صحبة المسيو (بترويتش) وسجلتها على بطاقة من بطاقات الزيارة وهى هذه الاول (انتيقخانة البلد) والثانى والثالث (جامع بيجوفا ومدفن خسرو بك)

والرابع (مدرسة الشريعة) والخامس (معمل الابسطة) والسادس (كنيسة الصرب القديمة) والسابع (بزار) والثامن (معمل الدخان) والتاسع (الدراويش الذاكرون) والعاشر (كورسيلوك) والحادى عشر (كوبرى المعيز)

ولما لاقيت محسنا بك أخذت بيده وسعينا لنتعرّف غرفة الطعام حتى انتهينا الى بهو قاتم الجوّ قليل الضياء كان أكبر تذكار لنا بغرفة الطعام فى (فينا) وحينما دخلنا وجدنا به كثيرا من المستخدمين وعددا من الضباط بينهم جملة من الميرالايات الفخام الهيئة الضخام الاجسام وقد أخذ كل واحد من هؤلاء برأس خوان يحف به جماعة من صغار الضباط الذين رأيناهم يبدون أدبا وخضوعا ومَلَقًا لرؤسائهم ولقد استدعى دخولنا اليهم استغرابهم منا والتفات أنظارهم الينا حيث رأونا ونحن اثنان من الشبان قشيبي الملبس أنيقي الهندام لابسى (الطربوش) فخليناهم وقصدنا الى طاولة وجلسنا اليها ولم يكن تعجبهم منا بأشدّ من غرابتنا من كيفية مأكلهم فلقد تقرزت أسماعنا من صلصلة (الشوك) وقعقعة الملاعق كأنها الموسيقى فى نقر الطبول ورجع الابواق !!!

أما كل شئ هنالك من طعام وآنية بل ونظام الخدم واداؤهم مهنتهم فكان رديئا مبتذلا وليس أقبح من أنه اذا جاء قوم من الآكلين ولم يجد لهم أولئك المَهَنَةُ محلا خاليا من الزحام زجوا بهم فى زمرة الجالسين فساهموهم فى أخونتهم الضائقة بهم . ومن المضحك أن صاحب اللوكاندة كان يحاول التشبه بأصحاب الفنادق الكبيرة فيشق صفوف القوم ويسعى بينهم عَلَّهُ يتسمع شيأ مما يطربه به الحاضرون ومن يمن طالعه وحسن حظه أنه لم يَعُجْ بنا ولم يمر علينا فكان يسمع منا ما يأنس به سمعه ويرتاح له طبعه !!! واذ تحرّج صدرى وتقرز سمعى عما كنت أسمع من لجب القوم وطنينهم وما ألاحظه من أعمالهم فضلا عما أجده من رداءة المطعومات لم أر محيصا من أن أترك غرفة الطعام واغتدى الى غرفتى بسلام عساى أجد من السكون والوحدة ما يريحنى من ذلك العناء ويسرى عنى بعض ذلك الحرج . ولما وافت الساعة الثانية ونصف تماما حضر المسيو بترويتش فتلقيته وسلمت عليه مصافحة وقدمت له رفيقى محسنا بك

ثم أزمعنا النزول وقد أطلعتــه على تلك البطاقة المبينة فيها أسماء المواطن التى تخيرت زيارتها . وعند ذلك نصح لى جنابه بأن نأخذ معنا ذلك (الترجمان)

مشاهد المدينــــة

نزلنا واذا عربة المسيو بترويتش فى انتظارنا أمام باب الفندق وهى تشبه بعض الشبه عربات ڤينا وان كانت لم تبلغ مبلغها من الحسن ولم تأخذ ماأخذت تلك من الزخرف والرواء وسائقها ذو شاربين طويلين . يقودها جوادان من الخيول المجرية مجذوذة نصف أعرافها والنصف الآخر منفوش على الأعناق . والعربة من طراز (ڤكتوريا) وهى ذات كرسىّ صغير أمامى غير أنه تجاوز بصغره عن المعهود فى سائر العربات لحاول المسيو بترويتش أن يجلس الى هذا الكرسى لآخذ وصاحبى مجلسنا من صدر العربة الرحيب غير أن محسنا بك سارع به ذوقه وسبق به أدبه الى أن استقل ذلك الكرسى دون صاحبه المسيو بترويش ولكنه جسيم وهو لا يبلغ مع ذلك شيأ من الراحة على ذلك الكرسىّ الصغير

جامع بيجوفا ومدفن خسرو بك

سارت بنا المركبة حتى جامع بيجوفا الذى جعلناه أوّل محط لزيارتنا وهو وان كان رسمه (الفوتوغرافى) أحسن من مبناه وصورته أتقن من مغناه غير أنه لايسعنا أن ننكر نظافته ونقاءه

دخلناه فوجدنا معشرا من الصلحاء قائمين يصلون وآخرين يتوضؤون من (حنفيات) كبيرة تتدفق بالامواه بين الاغصان الملتفة والاشجار الباسقات . ومما راقنا من مشتملات ذلك المسجد قبلته ومنبره فانهما على زخرف ورواء متناسبى الوضع متناسق الصنع . والمسجد اذا جنّ الليل يضاء بثريات الكهرباء وهو مفروش ببساط نفيس جميل المنظر حباه به سرى اسلامبولى . ومن هنالك توجهنا الى مدفن خسرو بك فوجدناه منقوشا (بالبوية) الجديدة ذات الألوان الجميلة وقد علق على جدرانه كثير من الألواح المكتوبة فى مواضيع شتى بخطوط متنوّعة

حتى اذا أخذنا مأربنا من التفرج عليه أجزنا الرجل الذى ألبسنا الخفاف المعدّة للسائحين الذين يزورون مثل هذه المعاهد الطاهرة وحبوناه (بالبخشيش)

مدرســـة الشريعة

وركبنا قاصدين الى ذلك المعهد الذى يسمونه (بمدرسة الشريعة) ولقد كنا كلفين به شغفين بزيارته حتى اذا نحن وصلناه رأيناه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ . ومن كان يبصر بفوتوغرافية هذا البناء وإحكام تصويره لايشك فى أنه راسٍ راسخ سام سامق ألقى بقدميــه الى الماء وشمخ بأنفه على السماء ولكن رأينا ولا حولَ ولا قوة الا بالله ان سماعك بالمعيدى خير من أن تراه . ومدرســة الشريعة أسمى من أن يكون هذا منظرها وذاك مخـــبرها

وصلنا واذا الجدار مرقوش بالجير وقد يكون على بعض الابنيه ناصعا مصقولا ولكنه هنا ليس بذى الصقل ولا النصوع ولم نجد عليه من شِيَات الزخرف الا طبقة خفيفة من (البوية) الفاتحة اللون وهــذا منظره من الخارج على اننا لم نبتئس به ولم نيأس من أن نجد من حسن باطنــه ما لا نأسف معــه على قبح ظاهره ــ وان كان الكتاب يقرأ من عنوانه ــ

دق الباب (حسين) الترجمان ففتحه رجل بسنوى بدين البدن جسيم الجسم . وتنحى جانبــا فدخلنا ساحة المدرســة فألفينا عرشها قائمـا على أقبية متوكأة على عمــد على شــكل المساجد فى مصر وفى وسطها فسقية فيها عدة أنابيب معدة لوضوء التلامذة اذا هم شاءوا

ولقد كنا رأينـا المقصورة فى الرسم الفوتوغرافى كأنهـا واســعة رحيبــة ولكنا وياللعجب ألفيناها لاتبلغ مساحتها على الحقيقة أكثر من ستة أمتار طولا فى خمسة عرضا . ! أما تلك الحديقة التى أورق الفوتوغراف أغصانها وفتَّح أكمامها فأفيكة غرر بها قلم الرسام والله يعلم ان ليس هنــاك طلح ولا زَهَر ولا طلع ولا ثَمَر بل ولا غصن واحد يميل اذا هبت النكباء ويميد اذا جرى النسيم !!!

ورأينا هنالك مصلاة فى صدرها قبلة بسيطة . وبعد ما وقفنا ثمت برهة من الزمن صعدنا الى الطبقة الثانية وأول ماوقع نظرنا على غرفة لاحد الاساتذة وأخرى لبعض التلامذة ثم عطفنا على الفصل الاول فداخلنى السرور حينما رأيت (التختة) مسطورا عليها درس عربى فوقفنا كذلك حينا ثم قصدنا الى حمامات التلامذة التى كنا نظن أنها واسعة جميلة كافية لضروريات الاستحمام كافلة لشرائطه فوجدناها — فضلا عن كونها لاتزيد على اثنين — أضيق من صدر الأحمق وعيش المكدود . ! وليس فيها الا خمس حنفيات لا أحسبها تفى بشئ من ذلك الغرض فخليناها وقصدنا الى غرفة الاساتذة التى هى منتداهم ومحضرهم فألفيناها واسعة جميلة غير أنا رأينا فيها ماعجبنا منه وهو ثلاث (خرط) مرسومة عباراتها باللغة الالمانية . ! ومنها دخلنا الى حجرة ناظر المدرسة وفى هذه قدّم لنا البروغرام (نموذج الدروس) فاذا هم يدرسون — اللغة العربية — ومجلة الاحكام — والشريعة الاسلامية — واللغة البوسنوية — والتاريخ — ولكنا مع الأسف وجدناها ألفاظا لانصيب لها من المعانى ودوالّ لاحظ لها من المدلولات . وحيث كنت أميل الى أن أضم الى بيان رحلتى شيأ كثيرا من معلوماتى عن العلوم التى يتدارسونها هنالك فرأيت أن أكبر معوان على ذلك أطلاعى على كتبخانة المدرسة التى كنت أظن أنه قد أُدرِج فى مطاويها العدد الكثير من المصاحف القديمة الخطوط والكتب المتنوّعة الفنون والاسفار التى لم تكن فى بلادنا من مواد التاريخ والأدب وعلوم الاخلاق والفقه الاسلامى وعلوم الحكمة ولكن ماذا رأيت ؟ رأيت أن مكتبة المدرسة لاتضم بين جوانحها أكثر من مائتين وخمسين كتابا كلها من المؤلفات الحديثة وهى وان كانت تؤدّى تلك الموادّ المسطورة فى البروغرام سطحية بسيطة فهى ولامرية غير كافلة بتنمية مداركهم وتبحرهم فى العلوم وتعمقهم فى المباحث بالقدر المطلوب

الكنيسة الصربية

ولما أمضينا هنالك حينا من الزمن ودعنا المدرسة وآلها ومنها ذهبنا الى الكنيسة الصربية القديمة فوجدنا بها ألواحا بديعة النقوش مزينة بأنواع (البوية)

الجميلة الشكل المتقنة الصنع حتى اذا دخلناها نَضَوْنا طرابيشنا عن رؤوسنا رعاية لاحساس المسيو بتروبتش ووجدانه الدينى وأى كافة علينا فى مثل هذا العمل وفيه غبطة لصاحبنا وكرامة لجانبه . ؟ ولقد وجدنا الكنيسة غاصّة بجماهير الناس وجلهم من الفلاحين بين رجال ونساء يلبسون جميعا ملابس يوم الاحد التى يعتنون عادة بتنسيق نظامها وتمنيق هندامها . وكانوا يتواردون فرادى على الرسوم والتماثيل المقدّسة عندهم ويتناوبون تقبيلها والتمسح بها الواحد تلو الآخر. ومابصر بنا خادم الكنيسة وميزنا من بين أولئك القوم بأزيائنا وملابسنا حتى سعى أمامنا يشق غمار المحتشدين ويخلى لنا بينهم الطريق . على أن مثل ذلك غير سائغ فى معابد المسلمين

أسواق سراجيفو

حتى اذا جلنا جولات فى أطرافها وتشبعت أنظارنا فى مشاهدها وتشبعت عيوننا من مناظرها ووقفنا على كل مافيها خرجنا قاصدين (بزار) الذى ألفيناه بسيطا لم يبلغ مبلغ الاسواق المهمة وهو شبيه بخان الخليلى فى مصر دخلناه واذا مسرب ممتد ولم يكن على جانبيه الا الحوانيت التى يباع فيها الجزم وبعض الاحذية الحمر الأَدَم (ساربك) مابين بسيطة الشكل ومزخرفة الهيئة مزدانة الاديم . وفى جانبه مسرب آخر لتشغيل الآنية النحاسية والصوانى وفناجين القهوة والصحون وما أشبه ذلك ولم يكن بين تلك المصنوعات مايستلفت نظرنا ويستجلب رغبتنا الا زهادة الاثمان وهوادة التجار وعدم طماعية نفوسهم. ووجدنا هنالك من المنسوجات والحرائر المطرّزة مالا تذهب بنا العناية به والاستحسان له أن نفصله للقارئ تفصيلا والذى كان يروقنا و ينال غاية إعجابنا وسرورنا انه مكتوب على ناصية كل حانوت باللغة التركية (يعيش السلطان) ومن هنالك ذهبنا الى الكنيسة اليونانية القديمة التى كانت موجودة قبل احتلال الاتراك لتلك البلاد وأصبحت اليوم سوقا حافلة بالمتاجر آهلة بالبيع والشراء وهى شبيهة أيضا (بخان الخليلى) غير أنها لم تصل الى غناه ولم تبلغ مبلغ ثراءه ولم يكن فيها من

حركة الأخـذ والعطاء والبيع والشراء ماهو هنا فى (خان الخليلى) وأكثر تجار هذا (البزار) من جماعة الاسرائيليين الذين يجتلبون بضائعهم من (فينا) بأثمان زهيدة وأغلب تلك البضائع من الأقمشة الجميلة الصبغة الواضحة الألوان وجوارب ومناديل على أضرب واشكال . واقبال الفلاحين هناك على تلك الاشياء عظيم وابتياعهم لهـا كثير . وأن أولئك التجار اليهود ليظهرون لزبائنهـم من البشاشة وطلاقة المحيا والملاطفة فى القول والمسالمة فى المساومة وأنهم فى خدمتهم وطوع اشارتهـم مايبعث بالنشاط ويدب بروح الاقبال عليهـم فى اعراق المشـترين (وكذلك يفعل التاجر الحكيم) وأهم مَتْجَر بين تلك الحوانيت لرجل بوسنوى مسلم وهو يبيع بعض العروض التى كانت متداولة شائعة بين الناس قبل ظهور التمدن الحديث مثل أغطية الترابيزات المزركشة والفوط المطرّزة بالقصب وما يشـبه ذلك وانه مع الاسف لم يصبح بين النـاس من يهتم باقتناء مثل هذه الاشـياء التى أضحت من قبيـل الآثار مع كونهـا لاتزال للآن تنمّ على بهجتهـا وتشف عن حسنها وروائها وسط هذه المنسوجات الحديثة العهد

ولولا أنى كنت فى مؤخرات سـياحتى وأخشى نفاد مابقى معى من النقود ـ وكثيرا ما يقع مثل ذلك للمسافر مهما عظمت ثروته ـ لكنت تزودت من هذه الاشياء بالقدر الكثير لعلمى بأن الرغبة ستتجه فيما بعد اليها لعدم وجودها . وقد نُمِىَ الىّ أن بعض عائلات المسلمين وبعضا من المصريين هم الذين يشتغلون هذه الاشياء الدقيقة التى بلغت من الاتقان الى مايستدل منه على حسن الاعتناء بها وهى أحسن بكثير مما يرى عندنا من قبيل هذه الاصناف

وما زلنا كذلك نتفرج على تلك العروض حتى أخذنا مؤونتنا من انتقادها فبارحنا ذلك السوق وقد اضطررنا بسبب ضيق الأزقة لان نسعى مشاة بين تلك الاماكن على أنه قد يدرك المـاشى مالايدرك الراكب . ومن ثم أرسلنا بالعربة الى الفُنْـدُق . وفيمـا نحن سـائرون فى طريقنا مشـيا اذ صادفنا محـل لمبيع الاسلحة فقصدنا اليه لعلنا نعثر فيـه على شئ من السكاكين الارناؤودية ولكنا لم نجد الا ثمـانى مسدّسات بالغ الصناع فى نقش مقابضها الفضية وخمس (يتجانات)

وأربعة أسياف ماضية الحدّ مصقولة الفرند جميلة الطبع متقنة الصنع ولم أصدف عن ابتياع شئ منها الا مظنة ان أجد فى محل آخر ما هو أجمل شكلا وأتقن صنعا

مدينة هيشا

ثم رجعنا الى الفندق وهناك سألنا المسيو بترويتش عما اذا كنا نرغب فى زيارة (هيشا) وهى موطن الحمامات التى عنيت بها الحكومة وبنتها على مصاريفها بأمر الحاكم الكونت (كَلّىْ) ذلك الرجل النابغة الذى كنت أبجله وأحترمه كثيرا بسبب مايعزى اليه من أن جميع المرافق والاصلاحات التى حدثت فى بلاد البوسنة انما جرت على عهده وكانت مشمولة بهمته ملحوظة بعنايته وكنت أعرف من قبل أكبر بنيه وبنى اخوته . ولقد كنت غير مرتاح الضمير فى (سراجيفو) حيث لاحظت فيها أن الاهالى المسلمين وسراة الصربيين كانوا لايحفلون برجال الحكومة ولا يقيمون لهم وزنا . وأخبرنى صديقى المسيو بترويتش بأن المسلمين وأولئك الصربيين متحرجوا الصدور من حكومتهم اذ يرون انها تسيء السلطة بينهم وتعاملهم بالشدة والقسوة ولذلك فالمسلمون يرومون أن ينضموا تحت لواء الاتراك والصربيون يرمون الى أن تسوسهم الحكومة الصربية وما أظن الا أن ذلك ناتج من حصر سلطان الحكومة فى بلاد البوسنة وقصر نفوذها عليها لانها غير قادرة بالطبع على توزيع سلطتها فى أطراف البلاد وتقسيمها على جميع أجزاء المملكة وان تعصب الكنيسة لما يزيد فى نفار أولئك الاهالى ويثير من غضبهم على حكومتهم اذ قد بلغ من فعالها وتعصبها الدينى أن تدعو من يقع تحت أيديها بل وتجتذب من تظفر به من بنات المسلمين والصربيين لاعتناق دينها والتمذهب بمذهبها وسأذكر ان شاء الله فى خلال هذه الرحلة مايحضرنى من الملاحظات على تلك الكنيسة . ثم وجدنا فى هذا اليوم من سعة الوقت ما يكفينا لزيارة (هيشا) فلبينا طلبة المسيو بترويتش وقطعنا المسافة اليها فى زهاء الثلاثين دقيقة وقد وافق وصولنا وصول قطار مشحون بالكثيرين من

مستخدمى الحكومة والضباط على اختلاف درجاتهم وتفاوت مراتبهم ورأينا كما
يرى عادة فى كل الجهات احترام صغار هؤلاء لكبرائهم وتوقيرهم اياهم ليحرزوا
رعايتهم وينالوا رضاهم . ثم رأينا هنالك احتفالا خيريا أقامته جمعية السيدات
تسلية وايناسا للكونتيسه (كَلَىْ) التى يسميها حزب المعارضين بنائبة الملكة ولا أظن
الا أن تلك الاموال التى تجمع من مظاهر هذا الاحتفال سيخص مصرفها
بالفقراء البائسين من الكاثوليكيين . وما كنت لأجد من نفسى جنوحا للذهاب
الى ذلك المحفل فاضربت عن مشاهدته ورحت أمضى ورفاقى مابقى من الوقت
فى زيارة الحمامات التى حينما أشرفنا عليها وجدنا بعضها (طمينيا) والآخر (كبريتيا)
ولكننا لم نجد فى هذه رائحة الكبريت شديدة كما هى فى غيرها ويستدل من ذلك
على أن مياه تلك الحمامات لم تبلغ فى جودتها مابلغت مياه الحمامات فى حلوان .
وفى وسط حديقة الحمامات يتدفق ينبوع ماء كانت درجة حرارته ستين سنتجراد
وهنالك رأينا الناس يتهافتون على شربها فعمدت الى تقليدهم حيث شربت منها
ولكنى من شدة ما كنت أحس من حرارتها لم أميز لها طعما .... وحين انتهينا الى
الضواحى رأينا حديقة كبيرة تبلغ مساحتها ثلاثة أفدنة وشاهدنا ثمت فى وسطها
(قفصا) مسجونا فيه دبتان صغيرتان كانت رائحتهما غاية فى الكراهة فتركنا الحديقة .
وعند مادانينا معهد الاحتفال الذى أسلفنا ذكره عرفت لأول نظرة أرسلتها أن سواد
المحتفلين من أرباب الوظائف الرسمية وذلك مما يؤيد خبر صديقى المسيو «بترويتش»
واذ كنا سائرين فى طرقات هذا البلد رأيت عن بعد فُنْدُقا عظيما يعطى ظاهره أنه
مستعد لراحة المسافرين ورفاهيتهم ويعلم الله ان كان باطنه كذلك أو لا لانى لم
أدخله .... ولما أغرورقت مقلة السماء استقللنا العربة وازمعنا الرجوع الى
«سراجيفو» فأخذت الخيل تعدو عَدْوَها حتى اذا اقتربنا من الفندق الذى
نحن نزول به بَصُرْنا بمحل صغير فيه بضائع شرقية جميلة وعند ماهممت بالنزول
للتفرج على هذه العروض وابتياع ماروقنى منها نصح لى صديقى المسيو «بترويتش»
بأن لا أنزل ولا أساوم فى شئ من هذا المحل قائلا إن صاحبه رجل يهودى ماكر
يبتز نقود الشارين بحيلته وختله ولا يبيعهم بضائعه الا بأثمان باهظة . غير أن

تلك النصيحة لم تكن لتثنى عزمتى ولا لتنقض زَمَامى فنزلت وكان الليل قد أقبل وألبس الجو جلبابه الحالك فأوقد رب الحانوت لمبة (بترول) كبيرة ووجدت أن أكثر تلك المعروضات قد رأيتها من قبل فى معرض باريس . وحينئذ سألته اذا كان يوجد لديه ملابس جميلة ؟ فأجابنى بأن واحدا من الناس أوصاه (ببدلة) تساوى مائة وخمسين (فولورينو) وأخذ يروج بضاعته بقوله انها فرصة ثمينة ! وأن شراء مثل هذه (البدلة) صفقة رابحة ! وأظهر لى أن فى مكنته احضارها مساء هذا اليوم الا انه لم يف بعد بوعده . ثم انثنينا الى الفندق وهنالك دعوت المسيو «بترويتش» بأن يتناول معنا فنجانا من الشاى . وبعد ذلك ودعنا على نية أن يؤوب الينا فى يوم الغد . ثم نهضت الى غرفتى لأكتب خطابا أرسل به الى (باريس) وشرعت بعد ذلك فى تسطير رحلتى مصمما على أن أقدم أول نسخة منها للجناب العالى الخديو ومازلت أترسل فيها حتى الساعة الثامنة . وحينذاك أدركنى الملل من التحبير فطويت القرطاس ودققت الجرس دقة لادعو الخادمة حيث أن خدم الفندق من النساء والعادة فى ذلك الفندق انه اذا أريد استدعاء خادمة يدق الجرس مرة واحدة واذا أريد نداء البواب يدق مرتين . ولا يتوهمن القارئ أن صنف هذه اللوكاندة بين الجوارى الكنس والخود الآرَام . بل ليعلم أنه بين سعال شيب . دُرْدِ الثنايا . هن فى سن اليأس أو أربين على عمر الجدات

جاء وقت العشاء ولم ترق لدى فكرة معاودة بهو الطعام . وحيث أن فنادق البوسنة لا تحتوى الا على عدد قليل من الغرف ليس بينها شئ من (الصالات) أمرنا باحضار الطعام الى غرفة النوم التى اضطرتنا هذه الاسباب الى الأكل فيها وبعد ذلك عدت الى كتابة رحلتى غير أنى لم أصبر طويلا لعدم تدربى على مثل هذا العمل ولم أجد أحسن من أن أضطجع على سريرى خصوصا وانى كنت محتاجا الى الراحة عقب يوم طويل أمضيناه فى عمل كثير وتعب كبير وكنت أحسبنى اذا أنا اضطجعت أنال راحة ما كان أحوجنى اليها وأن أنام بمجرد الهجوع ولكن مع الاسف كان السرير حافلا بسكانه وما كان احفاهم بمُنْزَل ضيوفهم وأكرمهم لمثوى جيرانهم . فلقد حسبت أنهم كانوا كلفين بضيافتى عندهم شغفين بمجاورتى اياهم

ومن أجل ذلك لم يزايلنى السهاد ولم تذق مقلتاى لذة الاغماض . وما كان أشبهنى بذلك الفتى الاعرابى الذى أصبح يتشكى لابيه وخز البق وأفاعيل الارق حيث يقول

يا أبتا ارقنى القِـذّان * فالنوم لاتألفه العينان

وماذا عسى أن يصنع مثلى مهما احتاط لنفسه وارتاد أحسن المواطن وأرفع الفنادق اذا كان أعلاهن قدرا وأغلاهن قيمـة فى بلاد البوسـنة لاتزيد أجرته فى الليلة عن اثنين ونصف من (الفولورينات) وهى قيمة لايبتئس بهـا ابن سبيل ولا تغلق بابا فى وجه انسـان حتى تكون منازل الكبراء منيعـة عن كل نزيل لاممنوحة كما هى لكل قبيل ! . ثم قمت فى باكورة الصباح لاقضى الحاجة البشرية وكان المحل فضلا عن كونه قليل الضـياء فانه شديد الرائحة الكريهة التى ربما أفضى فرط كراهتها الى الاختناق ومما زاد الطين بلة أن (سيفون) المحل كان فاسدا فلم أستطع به دفع شئ من ذلك الأذى . وقد جعلوا بدل ماأن يسـتعملوا الورق المعتاد استعماله فى مثل ذلك أن يستعملوا الاعلانات القديمة ! وتلك لعمر الله أمور لاطاقة بها لمن لم يتعوّد عليها . ولكن لما كنت بسبب كثرة الاسفار قد تعوّدت بعض التعوّد على مثل هذه الاشياء الغريبة لم يسعنى الا الصبر والسكوت عليها وبعد قضاء مايلزم عادة من النظافة ونحوها تناولت طعام الفطور وخرجت من غرفتى الى غرفة محسن بك . وفيما أنا فى الطريق قابلنى الاسرائيـلى صاحب الحانوت الآنف ذكره ومعه (البدلة) التى كان وعدنا باحضارها فأشرت اليه بأن يدعها فى غرفتى ووعدته بابتياعها اذا هى وافقتنى . فما تركها وانصرف الى سبيله حتى حضر (حسين الترجمان) الذى أفهمنى بأن صانع هذه (البدلة) انما هو رجل مسلم من سكان تلك الجهة وانه فى امكانه أن يشتريها منه مباشرة بنصف الثمن الذى طلبه اليهودى فلم أر الا أن آمر محمدا أغا بأن يرد الى اليهودى بضاعته وفى الوقت نفسه ذهب حسين الى صاحب (البـدلة) المسلم ليوعز اليه باستردادها من ذلك اليهودى الخاتل وأن يشتريها منه رأسا . ثم لم تمض ساعة حتى جاء صاحب (البدلة) بها مبينا أنه مستعد لبيعها بأى ثمن كان فانقدته فى ثمنها سبعة جنيهات ولبستها أمامه ليستظهر عيوبها التى وعد بتصليحها واعادتها فى الساعة العاشرة

العربية . وبعد هنيهة حضر المسيو «بترويتش» وكنت وقتئذ مشتغلا بتحرير بعض الخطابات فكلفت محسنا بك بمقابلته ليعتذر عنى اليه وأخذت أفكر فيما يلزم شراؤه لتلك البدلة من نحو حزام وحذاء وجورب ملون من صنعة الفلاحين هنالك ورأيت أن أنيط هذه المأمورية بحسين الترجمان الذى لا أظنه رجع من هذه الغنيمة بلا جدوى . وعندئذ تذكرت الاسلحة ولم يكن ليعنينى شراء البدلة وأدواتها بأكثر من شرائها إذ انها من أهم الاشياء عندى وأحب الامور الىّ فأرسلت بالترجمان ثانية ليشتريها من تلك (الدكان) التى أسلفنا أنها قريبة من الفندق فعاد وصحبته صاحب (الدكان) ومعه جملة من الاسلحة العتيقة ولم يكن ذلك المتجر بلابس للطربوش فظننا أنه مسيحى فسأله محمد أغا عن أثمان مبيعاته التى أحضرها وأخذوا يساومونه فيها رجاء أن يخفضوا من أثمانها ولكنى لما رأيته من حال الرجل وقلة بضاعته مما كان يستدعى المرحمة به كنت أود أن لا يشددوا عليه ذلك التشديد . ثم سأله محمد أغا عن دينه فدهشنا كثيرا عند ما قال انه مسلم !!! فقلنا له اذا كنت مسلما فلماذا لا تزال تلبس الطربوش على عادة المسلمين ؟ فقال ان (الكلبك) الذى أنا لابسه أهداه الى أخى الذى هو الآن ملازم فى أورطة (الارنغلول)

وحيث كنت أرغب فى انتفاعه أردت أن أشترى شيأ من بضاعته . ولكن لما كانت الاسلحة التى جاء بها الينا كبيرة ولا حاجة لنا بها سألته هل يوجد عندك أسلحة صغيرة ؟ فقال لا ولكنى أعلم أن واحدا من البكوات لديه (يَتَجَان) صغير فان شئت أتيتك به فأجبناه الى ذلك . ثم ما لبث ان جاء ومعه ذلك السلاح الذى وافق غرضى وطابق رغبتى اذ كان ماضى الحد دقيق الصناعة قديم الاختراع ولذلك صممت على ابتياعه منه حالا موقنا بأنى عثرت على ذخيرة ثمينة وكسبت صفقة رابحة . وأنقدته فى ثمنه أربعة جنيهات فأخذها راضيا شاكرا . على اننا لو شددنا عليه شيأ لقنع بأقل من ذلك . وأما محسن بك فقد اختار لنفسه (يَتَجَانا) بلغاريا وشراه بثمن بخس دراهم معدودة . وهو وان لم يكن مزخرفا فى الظاهر الا أنه كان متينا فرنده ماضيا غراره لينا متنه حتى اذا لويناه ماشئنا انثنى حتى التقى طرفاه واذا نحن افلتناه عاد منثقفا مستقيما كما كان

ثم انى وصاحبى أردنا أن نظهر لهذا الرجل شيأ من المهارة والحذق فيما نعلم من هذا القبيل . أما محسن بك فقد عمد الى ماشتهر به من كسر العصى ونجح فى عمله غاية النجح . وأما أنا فقد جربت سلاحى الذى اشتريته فى قطع تفاحة ملفقة بمنديل من الحرير وشق أغصان قائمة أطرافها على حافتى فنجانين من فناجين القهوة . فدهش الرجل من هذا العمل وكاد لايصدق بما حصل وتهلل وجهه وأخذ منه الاعجاب كل مأخذ اذ رأى أن القائمين بهذا العمل الحاذق هما من أبناء دينه وملته !!!

وكان هـذا الرجل مصابا بانتفاخات وأورام أشفقنا عليه منها فنصحنا له بأن يستطب لدائه ويسرع بأعمال (عملية) ربما يكون من ورائها خلاصه من هذا الداء العضال وانها عليه لهينة سهلة . فأخذ يبين لنا سبب تلك الاصابة وهو أنه وقت حرب الصرب كان يتصبب فى يوم عرقا وشرب وهو على تلك الحال من ينبوع ماء باردا كأنه مثلوج فأصيب بتلك الاصابة الشعواء وقد عرض نفسه على أطباء «فينا» الذين شخصوا داءه وأخبروه بأن فى (العمليـة) خطرا ربما أفضى الى الموت اذ أن فى تلك النقطة عرقا متصلا بالمخ . ولذلك استسلم للداء وقنط من رحمة الدواء . وعنـدئذ أسفنا أسـفا عظيما لعـدم وجود الدكتور الشهير «زنبا كو» باشا لان فى امكانه أن يبحث هذا المرض بحثا دقيقا بما أوتيه من الحكمة والخبرة التامة ريثما يقف على حالته ويرشده الى خير علاج

جاوز الرجل حظيرتنا وخرج شاكرا مثنيا . ثم طلبنا الغداء وعند ماعلمت أن طاهى الفندق مجرى طلبت اليهم أن يؤتونا (بجولاش) متأكدا أن طعاما واحدا تلتـذ به النفس ويرتاح له الذوق خير من تلك الصحاف الكثيرة التى نبت عنها طباعنا فى الايام الخالية . وبعد ماأخذنا غايتنا من الطعام رأيت أن أسترسل فى كتابة رحلتى ولكن عرضت لى هواجس تعارض أفكارى الاولى وترددت بين أن أكتب وأى فائدة لى من وراء الكتابة التى يلزم منها أن أتعرض لأمور سياسية !!! على أنى أكلف نفسى أن أكتب بلغة لا ألم بها تمام الالمام . ومن ثم يكون عملى غرضا لالسن الناقدين أو أمسك وكان حقا على أن أوقف أصدقائى

على تفصيلات سياحتى اذ كان ذلك يهمهم كثيرا وقد كنت أرجو أن الجناب العالى الخديو يوافقنى على هذا العمل ويحثنى عليه ويستنهضنى اليه فاستخرت الله وطردت وسواس التهبيط وأمطت عن نفسى رداء الكسل وغلبت على فكرة التثبيط فكرة الهمة والعمل ونهضت لا كتب ماشاء الله ان أكتب واذا بالمسيو «بترويتش» الذى وافى مع الميعاد تماما

أنتيكخانة سراجيفو

فأخذ كل منا عصاه بيده ومضينا لزيارة ما كان فاضلا مما يستحق الزيارة وفى عزمنا أن نبدأ بزيارة الانتيكخانة الاهلية وكانت عربة المسيو بترويتش (الكوميل) فى انتظارنا وحيث ألفيناها أصغر من العربة (فيكتوريا) التى ركبناها أول مرة رأينا أن نمضى غرض محسن بك واستأجرنا عربة لاندوه كانت نمرتها (١) وسرنا قاصدين الى الانتيكخانة حتى ألقى الحوذى عصاه أمام بيت يظهر عليه أنه من منازل السكنى ذوات الغلة والايراد . فنزل أولا المسيو «بترويتش» وقرع الباب فلم يجاوب هذا القارع الا بنبيح كلب مزعج فظهر أننا أخطأنا دور الانتيكخانة ولم نصب بابها وعندئذ طلب الينا المسيو بترويتش أن ننتظره فى فسحة المنزل وسارع الى عروج السلم ليتحقق ما اذا كانت الانتيكخانة مغلقة أو مفتحة الابواب فرآها لحسن حظنا مفتوحة وما طلب منا أن نصعد اليه حتى أجبناه بكل همة ونشاط

صعدنا واذا المتحف فى الطبقة الثانية وفى مدخله يرى الانسان صورا وتماثيل من الشمع وقد ألبسوها ملابس مختلفة وعلى كل واحدة منها بطاقة تدل على تاريخ ماعليها من اللبوس . والذى ألفت أنظارنا أكثر انما هى أردية السيدات المسلمات سكان (مصطار) اذ كن مع لبس الفرجية يضعن على رؤسهن من ذلك النسيج الاسود مايشبه شعار الراهبات وعلى وجوههن براقع ساترة لكل الوجه بحيث لايرى المتبصر شيأ مما يليها أصلا

ثم توجهنا الى الجزء المختص بالاشجار وأحسنها كان معروضا فى معرض باريس ومن ثم ذهبنا للجزء المختص بالنقود والمسكوكات . ثم رأينا فى صناديق من الزجاج

بعض الاعلام والبنود التركيــة والبوسنوية القــديمة من عهد الاحتلال التركى لتلك البلاد . وكان على تلك البنود عبارات مرسومة وكتابات مرقومة كما هى العادة ومما عجبت له أنى رأيت أمرا من بعض قدماء السلاطين لحاكم البوسنة يأمره فيه بالسير على بعض القوانين وهذا الامر مكتوب على ورق سميك وهو وان كان بعيد العهد قديم التاريخ الا أن ناظره لايشك فى أنه جديد لم يخلق ولم يتبذل ! ...

معمل الابســــطة

ولما أن أتممنا زيارتنا لهذا المتحف قصدنا الى معمل الابسطة الذى كنت مسرورا من توجهنا اليه حاسبا أن أشترى منه شيأ لمنزلى ولكن خالفنى حسبانى حينما قال لى المسيو «بترويتش» أن تلك البسط تباع بقيم باهظة وأثمان فاحشة لان الحكومة خصت نفسها باحتكار هــذا الصنف وهم يبيعون المتر المربع منــه بخمسين (فولورينو) مع وجود مثلها فى أزمير ولا يتجاوز ثمن المتر فيها ثمانية فرنكات !!!

أما رئيس المعمل فيزعم أن غلو القيمة وعلو الثمن انما هو ناتج من زيادة العناية فى تلوين الاصواف لان الالوان التى يصبغون بها فى ذلك المعــل مأخوذة من مواد طبيعية وليست هى من الالوان الصناعية (كالانيلين) وبهذه الوسيلة تحفظ بهجة الالوان . وتصان جدّتها على مر الازمان . أما المعمل فمركب من أربع غرف وفى كل واحدة منهن نحو الخمسين من الصربيات . وأما من جهة العدد والآلات فهى عادية . وكان فى جملة مايشتغلونه السجاجيد العجمية . وقد رأيت عشرين من أمهر العاملات يشتغلن طنافس الحرير

معمــــل التبغ

وبعد مازرنا قاعات المعمل ووقفنا على كل مافيها وجدنا أن الاسعار كما أسلفنا باهظة فلم يتسن لنا أن نشترى من هنالك شيأ فغادرنا ذلك المعمل واقتفينا فابريقة التبغ (الدخان) التى تبعد عنــه بنحو الخمس دقائق وعنــدما وصلنا اضطر المسيو «بترويتش» لان يدعنا ويذهب ليستأذن لنا رئيس (الفابريقة) فى الدخول فدعينا

الى الدخول فى غرفة ذلك الرئيس الذى رأيناه شيخا يناهز الخمسين من عمره . على أن هذا السن لم يثنه عن الخيلاء بنفسه والاعجاب بصناعته التى وهم أنه أمهر انسان فيها . ولقد استقبلنا هذا الرجل بالحفاوة والتعظيم وأبى إلا أن يجلسنا الى طاولته الخاصة وقدم لكل منا سيكارا . وابتدأ الحديث يجرى بيننا وكان خاصا بالدخان والسجائر . فزعم هو أن سجائر البوسنة خير من سجائر مصر فى الاتقان ودقة الصناعة ! وعزز مدعاه بأن نفرا من تجار السجائر فى مصر زاروا مصنعه وامتدحوا سجائره وأثنوا على دخانه . وانى وان لم أكن من شُرّاب الدخان ولا بالذى يميز بين طيبه ورديئه ومستملح السجائر ومستقبحها غير أنه لم يسعنى الاذعان لتلك الدعوى بل ولا السكوت عليها وأنا أعلم من جهة أخرى أن سجائر مصر هى أشهر سجائر العالم . فقلت له اذا كانت السجائر المصرية هى أجود سجائر العالم وأشهرها أفلا تكون على الاقل أحسن من سجائر البوسنة ؟ أما دعوى كون جماعة من تجار مصر امتدحوها فشهادتهم انما تفيد محض حسنها وفضلها لا أحسنيتها وأفضليتها ! . حتى اذا أخذ الحديث مأخذه أومأ الى وكيله وارفقه بنا ليكون دليلا لنا فى هذا المعمل وكان ذلك الوكيل باش الوجه طلق المحيا فانطلق بنا وأول ما رأينا محل الدخان وهو ورق حيث كانوا ينقدونه ليميزوا الخبيث من الطيب . وكان ذلك الدخان على صنفين فأحدهما أصفر رفيع خشن نقى وهو وارد (هرسكوفين) من بلاد الهرسك والآخر شديد السمرة وهو أكثر خشونة من الاول وهذا وارد بلاد البوسنة . حتى اذا هم أتموا نقض تلك الاوراق وأكملوا نقدها حملوها الى قاعة ثانية حيث تفرم بالعدد الخاصة بذلك . ووراء تينك غرفة ثالثة وكل عملتها من النساء وهن ينقسمن الى قسمين فبعضهن يكدس الدخان الجيد فى علب من الصفيح والاخريات يلففن الدخان المعتاد فى الورق باقدار وهذا الاخير شراب المتوسطين من الناس وعامتهم

ورأيت فى الدور الاول طبقة كبيرة تشتغل فيها جماعات النساء بعمل السجائر وكل منهن قد خص بشئ . وقد رأيت من مهارة أولئك العاملات وحذاقتهن ما أدهشنى من اتقان أفمام السجائر وأطرافها . وعند نزولنا قصدنا الى زيارة

المخازن وهنالك أخبرنا الوكيل بأن ألمانيا هى أهم مصدر لتلك السجائر والالمانيين أكثر الناس لها ابتياعا . والواقع ان هذه (الفابريقة) قد بلغت من الاهمية مكانا عظيما وانها لتحوى فى موضوعها أهم المبتكرات واحدث المخترعات . وبعد أن سلمنا على الرئيس وشكرنا له حسن صنيعه ودّعناه وعدنا الى الفُنْدُق وهنالك استسمحنا المسيو «بتر ويتش» وشكرناه شكرا جزيلا وأثنينا عليه ثناء جميلا للطفه وأدبه ووجوده فى صحبتنا وتحت ارادتنا هذه المدة ولم يمكنا وقتئذ أن نثنى عزمه ولا أن نمنعه عن تكلف الحضور الى المحطة لتوديعنا

وقبل أن نطلب طعام العشاء استحسنت أن نبادر بأخذ تذاكر السفر ولكنى أخبرت من البوّاب بأن التذاكر لاتصرف أبدا مقدّما وأن على المسافر أن يأخذها بنفسه من المحطة ساعة قيام القطار

باكر بك

ثم انى فكرت فى أن أفاجئ صديقى محسنا بك بعمل يستغربه وهو أن أطعمه طعاما شرقيا (فلفلا محشيا غير حار) وبينا نحن فى أثناء الأكل سمعنا دقا على الباب واذا الطارق صديقى العزيز باكر بك (طوظلى) الذى سارعت الى لقائه وأنا فى غاية السرور به والجذل بمقدمه وكان قد كبر سنه عن عهدى به ـ طبعا ـ وقدّمته لمحسن بك وناهيك بالفرح الذى خامر أفئدتنا اذ رأينا بعضنا مرّة ثانية على بعد اللقاء وطول العهد وشط المزار وتنائى الاقطار !!!

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ✻ يظنان كل الظن أن لاتلاقيا

ولا يمكننى أن أصف للقارئ ماطرأ من التغير على ذلك الشاب الذى أصبح ثابتا بعد أن كان يغلبه نزق الحداثة وعنفوان الشباب نزَّاعا الى التنقل والتريض ولكنه كان فردا وقد أصبح ربا لأسرة وعائلا لأولاد

ونظرا لبسالته واقدامه انتخبه أبناء ملته ليكون زعيما لهم ورئيسا عليهم

وقد أظهر لى باللفظ اليسير تعاسة المسلمين وشقاءهم فى تلك البلاد فكان قوله سببا فى كدرنا وانقباض صدورنا . وليبرهن على استياء المسلمين وعدم رضائهم

أطلعنى على عريضة تَشَكٍّ مقدمة للامبراطور وهى مذيلة بالمئات من الامضاات . ثم أعرب لى عن استغرابه من وجودى فى بلاد البوسنة فى ظرف لا يراه يسمح لى بمفارقة الحضرة الفخيمة الخديوية اذ كان يشاع فى أنديتهم ومجتمعاتهم أن بين جلالة السلطان الاعظم والجناب العالى الخديوى خلافا قائما وأن العلائق بينهما على مالا يحب المخلصون من التوتر والفتور !!! وتلك لعمر الله أفيكة من ولائد السوء يغرّر بها المتزندقون وسماسرة الشر ليوهموا جماعة المسلمين أنّ النِّفَار مستحكم بين أمرائهم حتى لا يسكنوا يوما للسلام ولا يعلقوا حبال آمالهم بحكومة الاسلام !!!

فأكدت لصديقى أنى لم أعرف تلك الاشاعة الا منه وأنها ليست من الحقيقة فى شئ . ثم سلمنا عليه وذهبنا الى غرفة النوم كى نستيقظ فى باكورة الصباح لاسيما ونحن نعلم أن جناب المسيو (باكر) كان تعبا من حركة السفر الطويل الذى قضى فى مسافته عشر ساعات . ركب منها أربعا متن السكة الحديدية وستا فى العربة فكان النوم اذ ذاك أحب اليه من كل شئ

السفر من سراجيفو الى ياسى

ولما أصبحنا ذهبت الى غرفة محسن بك لأنبهه الى أن الواجب علينا الآن هو المبادرة بالذهاب الى (المحطة) قبل أن يحين ميعاد السفر لنباشر بأنفسنا مايلزمنا من نحو شحن الخدم لمتاعنا وغير ذلك . ثم انثنيت الى غرفة (باكر بك) لأودعه فألفيته مشتغلا بلبس ثيابه اذ كان فى نيته أن يصاحبنا بقدر ما يستطيع الا أنى لم أر فى الوقت مايسعنى لانتظاره فأخذت محسنا بك واستأجرنا عربة (لاندوه) وكان معنا حقيبتان (خرجان) رأينا من الحرص عليهما أن نصطحبهما معنا . وكيف لا وفى أحدهما نقودنا وفى الآخر مانحتاج اليه من العقاقير !

وصلنا (المحطة) قبل قيام القطار بعشرين دقيقة فأسرع محمد أغا بشحن أمتعتنا ورجع طالبا منى المصاريف وقد تأهبنا للسفر ووجدنا كل مايلزمنا حاضرا . ثم أن باكر بك لحق بنا الى (المحطة) وكان هندامه وملبسه آنق منه بالأمس وألطف

ثم خلانا ومكث غير بعيد ليفطر وحين رجوعه أخذنا نتغادى ونتراوح على افريز (المحطة) حتى أزفت ساعة الرحيل . وكنت أعجب بأننا ثلاثة من الشبان نلبس (الطربوش) ونرتدى أفخم الملابس وأفخر الثياب بين أولئك التعساء الحال أخلاق الاسمال الذين كانت أنظارهم متجهة الينا محدقة بنا خصوصا عند مارأونا ركاب الدرجة الاولى فى هذا القطار دون سائر الناس

سار القطار وما فتئ يطوى الارض بأقدامه الحديدية طيا حتى وصلنا بعد ساعة ونصف الى (محطة) صغيرة وهنا نزل باكر بك ليركب منها قطار الساعة التاسعة ونصف قافلا الى «سراجيفو» حيث كان وجوده ثمت ضروريا ليترأس جمعية هنالك . وقد أظهر لنا من عبارات الجزع على مفارقتنا والأسف لعدم امكانه مصاحبتنا مسافة أطول من التى قضاها معنا وأعقب ذلك بأن ترجانى فى أن أرفع احتراماته للجناب العالى وتركنا . فصرت وصاحبى محسن بك فردين بعد ما كنا معززين بثالث وقد وجدنا من وحشة فراقه ما كنا نتناساه ونتسلى عنه بمشارفة غضارة النباتات ونضرة المزارع التى كان شكلها بل ومناظر الطبيعة العمومية من «سراجيفو» الى (طراونيق) على نسق واحد

مدينـــة طراونيق

أما «طراونيق» هـذه فبلدة جميـلة قائمة على ربوة ومنظرها حسن آخذ . ولقد رأيناها مسورة بسـياجات منيعة ومحوطة باستحكامات قديمة العهد تحف بها الالوف من صـنوف الاشجار ويشـقها نهر «فورباس» فيشطرها شطرين ويقسمها قسمين . وعند ماوقع نظرنا على هـذا المنظر البديع والمشهد النضير أسفنا أى أسـف اذ لم يكن فى مكنتنا أن نمضى فى هـذا البلد ولا يوما واحدا مع أنى كنت أميـل كثيرا الى زيارتهـا اذ كانت مقر الولاة ومنتجع الحكام يوم كانت تلك البـلاد من أعمال الدولة العلية وكنا نرى وسط تلك الاشجار الباسقات من كثرة المساجد مااستدللنا منه على أن جل سكانها من المسلمين . ومن الغريب أن هنالك كنيسة كبيرة كاثوليكية وأن الحكومة خصتها من بين المعابد برفدها اذ هى

تصرف عليها سنويا ـ هبة منها ومنحة ـ مايربو على الثلاثين ألفا من الفولورينات وهى مشيدة وسط بلد جل سكانه من المسلمين ... ومن هنالك لم يكن فى طريقنا مايستلفت أنظارنا اللهم الا أننا كنا نقترب آنا فآنا من سفوح الجبال المتتابعات وقبل وصولنا الى محطة (ياسى) بنحو العشر دقائق شاهدنا (فابريقة) كبيرة لصنع (الكبريت) وتلك المحطة آخذة بناحية تبعد عن المدينة بمسافة . أما وصولنا الى البلد فكان حيث الساعة الثالثة والدقيقة اثنان وأربعون . وكنت لما أن ألقى القطار مراسيه الى المحطة وأمّنت على متاعنا مستخدمينا كما هى العادة أتربص أنا وصديقى أوّل مركبة تصادفنا لنصل على عجل الى الفندق مخافة أن يضيق عمن يقصده قبلنا من السياح

فى مدينـــة ياسى

ورأينا تلك البلدة حافظة ـ كسائر بلاد البوسنة ـ كيان استحكاماتها القديمة ويمرّ الداخل اليها ببوّابة عتيقة البناء الا أنها حسنة الهيئة جميلة المنظر . وعند ماوصلنا الى الفندق الذى كان قريبا من هذه البوّابة وجدنا صاحبه واقفا ينتظرنا ببابه وعليه تظهر علائم القوّة والشدّة وهو مع ذلك باش الوجه باسم الثغر . أما ذلك الفندق فكان لايحتوى الا على سبع عشرة غرفة وحينما استقبلنا صاحبه أعدّ لنا غرفتين فى الدور الاول وغرفة ذات سريرين بخصوص اثنين من خدمنا فى الدور الأرضى أما الخادم الثالث فقد اضطر للسكنى فى غير ذلك الفندق لعدم وجود مناخ له فيه . وبعد أن تناولنا الشاى توجهنا لرؤية منحدر المياه المسمى بيازى حيث يتدفق عليه نهر «بليڤا» الذى يصب فى نهر (فورباس) منحدرا من ارتفاع ثلاثين مترا وتتشعب مياهه الى عشرة جداول وما كان أشبه هذا المنظر بما شاهدته فى بلاد النرويج . وأذكر انه كان فى صحبتنا ساعتئذ محمد أغا الذى كان دليلنا فى هذه المعاهد . وبعد ما استجلينا هذه المناظر الطبيعية البديعة مررنا بالحديقة المغروسة بصنوف الخضر ويطلق عليها أهالى ذلك البلد اسم (البستان الكبير) وانهم ليعدونها كذلك . وحيث لم يكن لنا خُبْر بتلك الطرائق ولا عهد لنا بها

من قبل اقتربنا على غرّة من كوخ فيه كلب عقور رائع الهيئة مملوء شراسة وغدرا . وعند مابصر بنا أخذ ينبح نبحا عاليا ويعوى عواء مزعجا فذعر محسن بك ذعرا ونفر يحسب أن الكلب مطلق ولكنه والحمد لله كان مقيدا موثقا . ثم انثنينا الى الفندق وهناك سألنا صاحبه عن الأمكنة التى يجدر بنا أن نزورها فدلناعلى المغائر التى لم نجدها بعد من الأهمية فى شئ ولا فرق بينها وبين غيرها من الكهوف فى كل الجهات . فانصرفنا الى مشاهدة الكنيسة الفرنسيسكانية وفيها رأينا فى صندوق من الزجاج رفات (استفانو الاول) رأس ملوك البوسناك وأولهم

قلعـــة ياسى

ثم ان صاحب الفندق أوعز الينا أخيرا بمشاهدة القلعة القديمة فاستحسنا هذه المشورة وآثرناها على كل مارأينا من المشاهد . وحيث كانت القلعة مملوكة للحكومة ولابد لمشاهدتها من استئذان قومندان البلد الذى كان وقتئذ مشتغلا بالمناورات العسكرية . واتفق من حسن الصدفة أن مفاتح القلعة كانت مودعة عند بوّاب الفندق وانما كان سبب استيداعها عنده كون ذلك الفندق تابعا للحكومة أيضا فاذن لنا فى الذهاب اليها والتفرج عليها . ولقد لاحظنا أن سكان البيوت التى على حافتى الطريق يشرفون علينا و يتطالون الينا من خلال النوافذ ونحن صعود الى القلعة . واذ وصلناها فتح لنا ذلك البوّاب واذا هى تحتوى على أربع غرف مبنية بالخشب وهى مستودعات للمهمات العسكرية . وثمّ بيتان أحدهما مستودع كذلك للمهمات والآخر مستعمل لخزن علف البهائم ومؤونتها وفى الداخل رأينا على أثر القلعة القديمة (لوحة) من الرخام مرسوما عليها صليب وحوله كتابات مرقومة فسألنا مرشدنا فى هذا المعهد عن سبب وضع هذا (اللوح) بهذه الصورة فأخبرنا بأنه فى تلك البقعة قُبر رأسا مسيحيين . وأخذ يقص علينا تاريخ قتلهما ودفنهما حيث زعم أن الأتراك هم الذين قتلوهما وشهروا بهما تشهيرا ففصلوا رأسيهما وقطعوا لسانيهما وجدعوا أنفيهما وصلموا آذانهما ثم شكوا رأسيهما على رمحين !!!

ثم ذهبنا غير بعيد من تلك البقعة حيث أرشدنا الى باب هنالك مرسوم عليه النصف الأعلى من هيكل انسان مجدوع الانف وعلى رأسه شعار . وزعم مرشدنا أنها صورة أحد الملوك وأنه كان موجودا على ذلك التاج صليب مرسوم والذى محا ذلك الصليب وجدع أنف ذلك المتملك لابد وأن يكون هم الأتراك !!!

وأما أنا فلا أظن الا أن تلك الصورة تمثال واحد من الشجعان الباسلين وقد يكون مجريا أو كروسيا . ثم أرشدنا فى تلك البقعة أيضا الى برج مدعيا أنه كان محبس المظلومين الذين كان الأتراك يزجون بهم فى أعماقه ويدعونهم خماصا ظماء حتى يموتوا جوعا أو يهلكوا عطشا !!!

وبالرغم عن اعتقادى أن كلام هـذا المرشد (الغوىّ) محض فضول لاحظ له من الصدق فان ذلك الرجل أثار غضبى بمرائه وكدر صفوى بافترائه لما رأيت من انه كان يحاول أن يتغفل مخاطبيه ويلبس عليهم الحق ويزين لهم البطل ! لان ذلك البرج الذى ادّعى إفكا أنه كان سجن المظلومين على عهـد الاتراك انما هو جزء من القلعة متصل بها متم لها وهو من استحكامات الدفاع التى كانت مستعملة كغيرها فى ذلك الحين وان أصبح اليوم منفصلا عنها لأن أثر الحائط الذى يدل على اتصالها به لايزال موجودا يرى وان درسـته الليالى وحطمته الايام . وبعد مااستجلينا هذه المعاهد قفلنا راجعين . وفيما نحن منحدرون صادفنا فى طريقنا بعض السيدات المسلمات وكنّ يسترن بالنقاب كل وجوههنّ كما بينا ذلك فى جملة عوائدهنّ وفوق ذلك رأيناهنّ يبالغن فى التسـتر ويغالين فى الاسـتخفاء بتحويل وجوههنّ الى الحائط بل وبتحويل جميع الاجسام حتى لايبدو منهنّ شئ . وان ذلك لناشئ من فرط الحياء والحرص على الاخلاق الاسلامية والعوائد الشرقية

أما الدليـل فما رآهنّ يفعلن ذلك حتى سخر منهنّ وضحك من عملهنّ وأخذ يهذى قائلا (ان أولئك الناس لغريبو الطباع وأشدّ غرابة أنه اذا سعى المرءوزوجه فى طريق كهذا وصادفهما أحد حاولت المرأة الاستخفاء خلف بعلها !) فاشمأزت نفسى من هزؤ ذلك الرجل وامتعضت بما كنت أرى عليـه من احتقاره عوائد المسلمين الذين تجمعنى واياهم صلة الملة وتربطنى بهم وشيجة الدين . ولم يسعنى وقتئذ

الا أن أدافع عنهم جهد المستطيع . فقلت له تعلم ياهذا انّ لكل قوم عادة يرون من أوجب الواجبات عليهم احترامها وتقديسها وأنهم لينصرونها على كل العوائد حتى ولو كانت سخيفة مرذولة وكان غيرها قويما مستحسنا . ولو أنك أنصفت من نفسك لم تنتقد عادة غيرك وأنت تعلم أن العادة اذا خامرت النفس واستحكمت فيها صارت كأنها احدى طبائعها . على أنك لم تأمن أن يكون لك ولقومك مايؤخذ عليكم من الاخلاق المنكرة . والعادات المستهجنة . ومالو بحث فيه أولئك الناس لأضحكهم منكم . أكثر مما يضحككم منهم . ولأستدعى استهزاءهم بكم . أشدّ من سخريتكم بهم . فأولى لك وأحرى بك أن تكف عن انتقاد الناس وتقصر عن تهجين عوائدهم وتقبيح خلالهم . ثم اننا رجعنا الى الفندق مصمما على عدم الخروج . وهناك عدت الى كتابة رحلتى حتى الساعة السابعة ونصف ثم قصدت الى غرفة الطعام حيث أزف وقت العشاء فرأينا كذلك هناك بعضا من مستخدمى «ياسى» وآخرين من سكانها ولكن مارأيناه من جماعة المستخدمين كان قليلا بسبب أن سكان البلد لايزيدون عن أربع آلاف نسمة

جاء الطعام وكنا نحسب أنه شهى مقبول فاذا هو اذا نحن نعتناه بأنه أقبح من طعام «سراجيقو» نكون قد أطريناه وبالغنا فى مدحه . ومن ثم لم يهنأ لى أن أتبلغ منه شيأ فلم ألبث الا قليلا وعدت الى غرفتى لأستعيض من راحة النوم مافقدته من لذاذة المأكل وكان يمكننى أن أسهر لولا أن البلد لم يكن فيه من وسائل السمر مايدعو الى السهر

منظر غضير

وفى باكورة اليوم الثانى عشر عزمنا على التريض فى جهة «جزيرو» وكانت المسافة بينها وبين (ياسى) لا تبعد الا بضع كيلومترات وتلك لعمر الله نزهة لايستطيع واصف مهما بالغ أن يشرح حسنها أو يبين جمالها أماأنا فليس يمكننى أن أصفها للقارئ بأكثر من أنى أقول لو أننا صادفنا أضعاف ما كابدناه من المشقة والنصب فى بلاد البوسنة وعلى الخصوص فى «سراجيقو» فى سبيل الوصول الى مثل تلك

الرياضة لما كان من المشقة فى شئ اذ كانت الراحة تامة والرفاهية مستكملة وهنا أوقف القارئ على بعض الشئ فى هذا المعهد النضير والمجلى الآخذ بمجامع القلوب

هنالك بحيرة مترعة يكونها نهر (بليقا) ويمدها بمائه الغزير وما أشبهها ببحيرة «برنس» فى بلاد سويسرا لولا أن مايحيط بها من سلاسل الجبال أصغر شموخا وأقل ارتفاعا من الجبال الحافة ببحيرة «برنس» اما مياهها فكأنها النسيم رقة أو هى ألطف والجين بياضا لولا أنها أنصع وأشف . وكان يبدو لى أنها بعيدة العمق عويصة القرار . ثم ان النهر الذى يخرج منها يتحدّر من جملة منحدرات و يتخلله الالوف من الجزر التى كان الماء المعين يتعرّج بينها ويتلوى حولها كأنه ظهور الاصلال وتشرف عليه الاشجار الكثيرة تمايل أغصانها وتمايس أخواطها وأى منظر لعمرى أقرّ للانظار من جنات تجرى من تحتها الأنهار . وكان الماء المتحدّر من الربى الوطيئة أقل بفرق محسوس منه فى الاجزاء العالية . وهنالك كان الماء كذلك يمرّ بين تلك الجزائر التى يكونها للنظر تخلل الماء بينها . وناهيك بمنظر قد عاونت يد الطبيعة فى إحكامه يد الصنعة الفائقة حتى لقد بلغ من ابتهاجى به وانشراحى منه أن انتقش فى صحيفة نفسى . وأخذ له مكانا فسيحا من صدرى . فلا أرانى أنساه طول دهرى . وقد اقتنعت منه بهذا الجزء وا كتفيت به عن غيره وصممت على أن لا أتوجه الى (جزيرو) التى كانت تنتظرنا بتمام هذا المنظر النضير وختامه . ثم انثنينا الى الفندق وأجزت خدمنا أن يذهبوا الى تلك البحيرة لينالوا من حسن ذلك المجلى البديع مااستجليناه ويشاهدوا من منظره الرائع ماقد شاهدناه ... ثم اننا أوصينا صاحب الفندق بعربة كبيرة لنركبها الى (بنيالوقا) حيث لا تربط بينها و بين (ياسى) سكة حديدية . وبعد هنيهة توجهنا لزيارة السوق الذى كان أشار علينا صاحب الفندق بزيارته . فصرنا اليه وكنت وصاحبى نمشى مشية عسكرية لابسى الطربوش وكان طريق سيرنا من الشارع الكبير . وفيما نحن كذلك قابلنا واحد (مُلّا) وسلم علينا عن بعد اشارة باليد فرددنا له سلامه وأجبناه بمثل تحيته عن قلب مخلص ونية صادقة . وكنا ننظر الى الشيوخ الكبار الذين كانوا يصادفوننا فى الطريق فنجدهم يتهللون بنا بشرا وسرورا اذ كانوا ينظرون الينا فيروننا طلق المحيا باسمى الثغر ونحن على

أحسن مايكون من القيافة والهندام . وبينا نحن نمشى اذ صادفنا مسجد وعنده مقابر مرقوم عليها كتابات فوقفنا عندها حينا وكان ممن دفن فى هذه المقابر اثنان من الشجعان الباسلين وهما جابى حاج مصطفى بك وابنه . أما الاهالى الذين كانوا يمرون فى ذلك الطريق فما رأونا كذلك حتى أقبلوا علينا والتفوا حولنا فبعد ان كنا نخافت بالقراءة جهرنا بها وأعقبناها بتلاوة فاتحة الكتاب مستمطرين بها الرحمة على أولئك الاموات . ثم ذهبنا الى السوق الذى لم نرأنه من الأسواق المهمة الجديرة بالفرجة اذ لم يكن فيه الا حوانيت بعض الفاكهانية والقصارين (الجزارين) فقفلنا قاصدين الى الفندق

متتبع غـــريب

واذ نحن نسـير بدت منا التفاتة الى الوراء فرأينا رجلا يتبعنا وهو يلبس الطربوش والجاكتا غير أنه لم يكن حسن البزة ولا لطيف الهندام وكان طويل الجسم عظيم القامة وليس له من شكله ولباسه مايشعر بأنه من أرباب المجد ولا ذوى الحسب ولا من أهل الغنى واليسار فداخل نفوسنا من أمر هذا الرجل ريبة ولما لم يبق بيننا وبين الفندق الا خطوات قليلة اقترب منا وسلم علينا سلاما تركيا وأخذ يتكلم معنا من تلقاء نفسه أما نحن فلما لم نكن نعرفه من قبل أوجسنا فى نفوسنا خيفة منه . وكان من كلامه ان سألنا أولا عما اذا كنا شاهدنا جميع مشاهد «ياسى» وأتينا على كل مناظرها ؟ فظننت من هذا السؤال أن الرجل يرمى الى مرافقتنا ليكون دليلنا فى تلك المعاهد ولكن لما رأينا من تبذل هيئتـه وقبح قيافته جاوبناه بأننا لم نبق شيأ من البلدة حتى زرناه ولم ندع معهدا فيها حتى وافيناه . وكان ذلك بمرآى ومسمع من صاحب الفندق الذى استغرب منا ذلك وكأنه أنكر علينا خطابنا لهذا الرجل على هذه الصورة فقال لى همسا باللغة الالمانية ان هذا الرجل لمن خير رجال «ياسى» وضواحيها بل ومن أذكاهم فؤادا وأطولهم نجادا . فأفرخ ذلك الكلام روعنا وسرى عنا ما كنا نجد . أما الرجل فما علم من تبادل الحديث بأننا من أبناء دينه حتى أخذ يشكو الينا بثه وحزنه مما تسومه الحكومة من الغبن

فى المعاملة . وحيث خشينا أن نجرى معه فى هـذا الحديث ونحن وقوف أمام باب الفندق أشرنا اليـه أن يرافقنا الى حيث منحدر المياه اذا كان لم ير بأسا من ذلك فهنالك يخلو لنا الجو ونتكلم بما شئنا بكل ارتياح واطمئنان . فمشى أمامنا وتبعناه فى طريق صغير حتى وصلنا الى بقعة من الارض كاسية بالحشائش والاعشاب

حديث مع أحد أعيان ياسى

وهنا وقف وقال . ألا تدرون أن هـذه الارض التى تحت أقدامكم كانت مقبرة للمسلمين وقد هدمت أجداث الجزء المرتفع منها تمهيدا لأن تتخذ فيما بعد للابنيـة والعمائر ؟ وأما هـذا الجزء الذى تشاهدونه من البلد المنحصر فى سور المدينة القديمة فالذى يسكنه هم جماعة المسلمين فقط . وذلك المنزل الكبير هومنزلى وأنى أكون شاكرا ممتنا اذا تفضلتم فأجبتم دعوتى بتشريفى فى هـذا المساء اللهمّ الا اذا كانت هنالك ضرورة تدعوكم الى أن تمضوا ليلتكم هذه فى (ياسى) فشكرنا له هـذا المعروف وأعربنا عن أسفنا حيث كنا اعتزمنا على الرحلة بعـد الظهر ولا يمكننا مع ذلك أجابة دعوته . ثم انه ألفتنا الى برج هنالك صغير مربع الشكل وأخبرنا بأن الاتراك كانوا اتخذوه مسجدا ونحن الآن نريد ترميمه واصلاحه لنعيده سيرته الاولى غير أن الحكومة بعصبيتها أبت الا رفض طلبنا بدعواها أن هـذا البرج فيما مضى كان جزأ من كنيسة يونانية !!!

فسألته واذا كان البناء من هذا البرج ولا محالة متداع فلم لاتتركونه وتبقونه على ماهو عليه ليكون أثرا من الآثار فان ذلك خير من أن تضمه الحكومة الى الكنيسة ؟ وحيث ان الحكومة منيعة الجانب قوية الاركان وأنها على ذلك لشديدة الاخذ فلا سبيل لكم الى مناوأتها ولا فائدة تعود عليكم من وراء مضادتها ومخاصمتها بل ربما كان فى ذلك من الضير والضر ماهو أدهى وأمرّ . وكان الرجل يسمع ماألقى عليـه بكل اصغاء وانتباه ولم يقطع علىّ حديثى بل ولم ينبث فى غضون ذلك ببنت شفة وبعد ماألقيت عليـه من النصائح والعظات أخذ يفهمنى سبب

مباغضتهم للحكومة ومناهضتهم لها بأن ذلك ليس لمجرد منعها اياهم من تعمير البرج واحالته الى المسجدية بل أنهم يخشون أن تحيله الحكومة الى كنيسة حيث أن جماعة (الفرنسيسكانيين) كانوا يساومون أرباب الابنية المجاورة له وينقدون الناس فى سبيل شرائها أثمانا باهظة ! ثم انه شرع يرينا الكيفية التى سلخت بها الاوقاف منهم . واذ رأيت أن الحديث سيدخل بنا فى دور جديد مفيد انثنيت الى الفندق ودعوته كما هى العادة الشرقية ليتعاطى معنا فنجانا من القهوة ريثما يقص علينا هذا القصص . فدخلنا غرفتى واسترسل فى حديثه قائلا أن والده ترك له وقفا تبلغ غلته السنوية ألفا من (الفلورينات) وجعل مصرفها خاصا بسقايات باسى (سبل الماء) وقال وليس يعلم الا الله مبلغ استغرابنا ودهشتنا انه لايدرى أين تصرف هذه الاموال وكذلك كل شئ من هذا القبيل ! ثم ان أوقافنا التى كان لايقل ريعها عن عشرة فى المائة أصبحت بسبب استحواذ المصارف (البنوك) عليها لاتجود الا باثنين فقط ! وأما من جهتنا معشر البكوات عيون البلاد ومياسيرها وأصحاب الاملاك فيها فقد ضربوا على أيدينا وغلوها عن التصرف المطلق فى ممتلكاتنا . وأن عقاراتنا منقسمة الى قسمين أحدهما تحت تصرفنا التام والقسم الآخر قد جعل تحت تصرف الملتزم الذى يكون من قبل الحكومة ولايمكننا تغييره ولا اخراج أملاكنا من بين يديه حتى ولو كنا لم نساومه ونتفق معه على شئ ! ثم ان هذا المستأجر المستأثر لا ينقدنا الا ثلث الحاصلات والثلثان الباقيان يكونان من حظه وخاصة نفسه . وما كنا لنشكو لو أن أولئك المستأجرين أهل جد وعمل يشغلون فى الاراضى شغلا نافعا فتنمو مواردها وتكثر حاصلاتها ولكن ماحيلتنا وهم كسالى لايشتغلون وأكثرهم من جماعة المسيحيين . ومن سوء الحظ يتفق أن أولئك المستأجرين يكونون من الاغنياء والمثرين الذين لايعنيهم الا تربية دوابهم وتنمية مواشيهم ومالنا نحن ولذلك حيث لافائدة تعود على الملاك من ورائه .

تلك أعمالهم التى أوقعتنا فى الحبالة ونحن ولا شك صائرون الى العيلة والفقر فنكون مع المكدودين البائسين مع كوننا أرباب مزارع وأصحاب ضياع . !!!

وهؤلاء علماؤنا ومتفقهونا قد أصبحنا لانجد منهم اثنين يعرفان مايجب عليهما تلقاء

عامة المسلمين . وسبب ذلك فيما أعلم أن أكثر متعلمينا متظاهرون للحكومة بالودادة والاخلاص وقد قطعوا ما كان بينهم وبين الاتراك من الصلات والعلاقات والحكومة كذلك تخشى أن تعين فى مناصبهم من تعرف أنه من النبهاء الحاذقين اذ لوفعات ذلك لما أمكنها أن توقف ميلهم ولا أن تمنع جنوحهم الى الاتراك . وانكم لابد عرفتم مماشاهدتموه فى (سراجيڤو) تأخرنا وأدركتم تقهقرنا حتى لقد صرنا الى ماترون وحتى ان النساء اللواتى كن يحافظن على شرفهن ويبالغن فى الحرص على عوائدهن أخذن ينسلخن عن تلك الاخلاق شيأ فشيأ ولسنا نعلم عنهن ذلك الا من يوم ساستنا الحكومة الحالية . وأن فى (سراجيڤو) التى كنتم بها من مثل ذلك مايؤيد قولى . وهكذا صار يقص على أسوأ القصص ويضرب لى الامثال على سخائم حالهم وانصرام حبالهم . وان الخطة التى سارت عليها الحكومة معهم قد بذرت فيهم بذر الشقاق وألقت بينهم العداوة والبغضاء فانقسموا شيعا وتفرقت كلمتهم أيدى سبا وما كانوا ليعلموا من قبل أن تلك الحكومة تسوّل لهم عملها وتعلى لهم من ختلها وخداعها ماتنال من ورائه مقصدها وتحصل على مآربها حتى تصدّعت ألفتهم وشطت نواهم . ثم سألته عن تلك العظام التى أسلفنا انا رأيناها فى كنيسة (الفرنسيسكانيين) وقد أودعت فى صندوق من الزجاج . فقال لعلهم قصدوا بذلك استجلاب رغبة الاهالى واقتيادقلوبهم . والفلاح من هؤلاء فضلا عن شعوره الوطنى فانه مجبول على تكشف الاشياء مفطور على استظهارها ولا شك أن وجود مثل هذا الهيكل مما يجتذب أفئدتهم الى تلك الكنيسة وان مما لاحظته أن جماعة الصربيين والمسلمين البوسنويين قد ملئت أجوافهم غيظا وأفعمت صدورهم غلا ولم يجدوا الا الصبر مفزعا واليأس مع هذا الأسى خير معوان . وبعد هذه المحادثة الطويلة تبادلنا بطاقات الزيارة كما هى العادة عند التعرف راجيا أن أقوم له بخدمة فى المستقبل ولكنى ماعرّفته باسمى الحقيقى ولو أنى عرّفته به لاطنب فى بسط شكواه وأسهب فى وصف بلواه بل ربما أسمعنى فى ذلك ماهو أعجب وأغرب . ثم انه غادرنا منشرح الصدر متسليا بما قرأه على وجوهنا من أى التألم له والتوجع عند حديثه

ولا بد من شكوى الى ذى مروءة * يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ولما ان جاء وقت الظهر نزلنا الى غرفة الطعام لنتناول شيأ منه قبل السفر الا أنى كنت بما سمعت ضائق الصدر ...

مبارحة ياسى الى بنيالوقا

وما وافت الساعة الثانية عشرة ونصف حتى كانت عربة السياحة التى سبق أننا أوصينا بها فى انتظارنا وهى تشبه تمام الشبه عربات سويسرا وتحتوى على أربعة مقاعد من الداخل واثنين على سطحها وواحد بجانب الحوذى وفى مؤخرها صندوق حديدى لوضع الاشياء القيمة ويقودها جوادان من الخيول المجرية . وفى هذا الوقت شحن المتاع الذى ربما كان يتعذر شحنه بأجمعه لولا همة محمد جعفر وأرغامه أنف المانعين . فوضعت الطرود الصغيرة فى ذلك الصندوق الحديد ثم أن الخدم جلسوا الى الامكنة التى عينتها لهم فى تلك العربة . فجلس محمد أغا بجوار الحوذى وجعفر ودولت على سطحها وأما أنا وصاحبى فكنا داخل (اللاندوه) الذى كان شطرها مفتوحا ولم يمكنا اقفاله بالكلية بسبب مامعنا من المتاع . ثم جلسنا ننتظر سير العربة حتى سئمنا الانتظار وما كان أشبهها وقتئذ بقطارات ايطاليا التى تظل واقفة بركابها بعد أخذ اشارة القيام زمانا طويلا ...

سرنا وكان صاحب النزل واقفا لوداعنا وهو باش الوجه متبسم الثغر . واذ نحن مارون بحديقة صغيرة رأينا ذلك البك الذى أسلفنا حديثه ينتظرنا ليودعنا كذلك فودعناه وسرنا بسلام

بارحنا (ياسى) هذا البلد الذى لم نكن لنسر بمفارقة بلاد البوسنة بأكثر مما كنا نأسف على فراقه فلقد وجدنا من حسناته ماذهب بسيئات غيره (ان الحسنات يذهبن السيئات) ولئن كانت كل بلاد البوسنة ذنوبا فلقد رأينا لها من (ياسى) أحسن العذر وأجمل الغفر

استطراد فى السياحة

على أنى ويعلم الله كنت بين تلك الحوادث كأحسن ما أكون لذة وسرورا اذ أنى استفدت بمزاولتها وممارستها من الدروس النافعة الجمة والفوائد الكثيرة مالولاها لم يكن أبدا . والذى كان يحببها الىّ ويسهلها علىّ انما هو كلفى بالعلم وشغفى باستكشاف مايكتمه ذلك الوجود الكبير فى صدره ويطويه هذا العالم الخطير تحت جناحه فلما أصبحت أرانى أضم الى علمى بمشاهد أوروبا وماتحويه جوانحها من الغرائب والعجائب علما جديدا بهذه الاقطار النائية وما طوت وتلك البلدان القاصية وماحوت لاأجدنى أبالى بمفاجأة الحوادث مهما بلغت ولابمناوأة الكوارث كيفما عظمت بل ان الذى يهمه العلم لايجد الفائدة تامة ولا يحصل على الغرض كاملا الا حيث يتلقى دروسه عن أفواه تلك الحوادث والا حيث يثبت أمامها ويجلس بين يديها وهو ولا ريب لاينال من علمها ومعارفها الا ريثما تبلغ هى من قوته وثباته . نعم ولا ينتفع بها فى مآربه الا قدر مايعطيها من اقدامه ونشاطه . وقد قيل

على قدر أهل العزم تأتى العزائم * وتأتى على قدر الكرام المكارم

أما والانسان يخشى مقابلتها . ويتهيب لقاءها . فقد وقف به ضعفه وقعد به عجزه حتى أنه ليرى أن يمسك بالسماء أو يأخذ بزمام الجوزاء أسلس له من موافاتها وأسهل عليه من مداناتها . فتكون نتيجته الخسار وغايته الحرمان

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى * فما انقادت الآمال الا لصابر

الانسان بطبعه جنوح الى رؤية الغريب ميال لاكتشاف الجديد (ولكل جديد لذة) وقد يصادف هذا الميل من الظروف والمقتضيات مايقويه ويقومه حتى يصير طبيعة مفطورة وجبلة راسخة كما قد يعتوره من العثرات والموانع مايوهيه ويوهنه ولربما ذهب به ومحا من النفس أثره ولقد غالى بعض الناس فى أمر السياحة والاكتشاف حتى وقفوا لها نفوسهم وقصروا عليها أعمارهم فاستفادوا وأفادوا علما بالبلاد واحاطة بطبائعها ودرسا نافعا فى أخلاق الناس وعوائدهم . وان وراء ذلك من التمدن والتمدين مالايخفى على أحد . والحق ان أعظم

فتح يعرفه الناس فى هذه القرون الأخيرة لم يكن الشأن فيه للرماح المثقفات والقسى المعطفات كلا ولا للاسنة القواطع والنصال اللوامع بل الفضل كل الفضل راجع ولا مرية الى السياحة والاكتشاف . نعم قد تتفاوت المشارب وتتباين الاغراض فى القصد الى السياحات الا أنى أشبه السياحة بمجموع أغراضها ومزاياها بالنخلة فكل مافيها من جذع وفرع وطلح وطلع وصنو وقنْو طيب نافع مفيد . كما وأنى أشبه السائح فى ظعنه واقامته بالمخترع يقصد الى عمل مخصوص فى نفسه حتى اذا هو مارس الطبيعة وعالج تراكيبها وتحاليلها وأعمل فكره فى خواصها ومزاياها ظهر له (عرَضًا) فى غضون عمله من نفيس الاسرار وغريب الخواص مالايرى غرضه شيأ فى جانبه (ورُبَّ عرض فَضَلَ جوهرا)

سافرت بلاد البوسنة لأغراض ثلاثة . الاول تغيير الهواء وتبديل المناخ ومشارفة مناظر الطبيعة . الثانى التدرب بالسياحة فى تلك البلاد على اجتياز ماهو دونها مدنية وأقل حضارة . الثالث معرفة عوائد القوم واكتناه أحوالهم والوقوف على أخلاقهم . فرأيت هنالك بطريق (العرَض) من مهام الامور وعظائم الآثار مالم تكن مقاصدنا الاولى معه شيأ مذكورا خصوصا مايتعلق بالمسلمين فى أموالهم وآمالهم ومعارفهم وعلومهم وحياتهم السياسية الى غير ذلك مما هو مبسوط فى هذه الرحلة

عـــود الى بدء

هذا والغريب أن الحوذى لم يكن لينبه المارة بنفخ البوق ولاقعقعة السوط (الكرباج) كما هو المعروف من الحوذيين فى مثل ذلك بل انه كان يصفر بصفارة صغيرة . ثم لما جاوزنا البلدة وسرنا فى الخلاء أسرعت المركبة حيث الطريق مستو معتدل وهو آخذ فى طوله بموازاة نهر « فور باس » ومازلنا نقطع المزارع والحقول ونمر ببلاد صغيرة حتى دخلت بنا العربة نفقا فى الجبل يبلغ طوله مائة وخمسين مترا وقد أضاؤه بلمبتى (بترول) وتلك أول مرة مررت بالانفاق واجتزت فيها بطون الجبال وركا هذا النفق الى أودية ضيقة جدًا حتى كان يخيل الينا أن الجبلين متلاصقان .

واذ ذاك رأينا نهر «فورباس» يتحدّر بقوّة عظيمة . ثم أسلمتنا تلك الاودية الى نفق آخر ولكنه لم يبلغ طول الذى قبله . ثم عبرنا النهر على قنطرة حديدية تباطأ الحوذى عندها فى السير ولست أدرى لم ذلك والكوبرى كان صلبا متينا ؟ وما زلنا نسير تارة عن يمين النهر وطورا عن شماله . وكنا نرى عناية القوم بتنظيم الطريق شديدة عظيمة اذ كنت أرى من وقت لآخر الفلاحين وبعضهم منهمك فى تكسير الحجارة وتجهيزها . والبعض الآخر مهتم بتطهير المجرى المحاذى للطريق . وبعد مضى ساعة ونصف أخذ الحوذى يمشى الهوينا حتى وقف على ينبوع ماء هنالك مخصوص بسقى الدواب ومن هذا الينبوع سقى الحوذى خيله واستأنف السير فدخلنا فى مضيق بين جبلين حسبناهما لشدّة قربهما متلامسين . وأجمل مارأت عينى هنالك منظر الاشجار الكبيرة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء وأذكر أنه لم يقع نظرى على أسمك جذوعا ولاأسمق فروعا منها فى بلاد البوسنة وأنها مع كثرتها وتنوعها لايوجد بينها شجر (السرو) والذى كان يزيد فى حسن ذلك الشجر أنه كان لمحض الطبيعة وليس ليد الصناعة مدخل فى تنسيقه اذ كنا نرى بعضه طريحا على الارض وبعضه هشيما تذروه الرياح والبعض منه ملقى فى مندفع المياه . ثم أن الميت منه كاس بالنبات الطبيعى المسمى فى عرف العامة (بعش الغراب) وهو نبات ذو شوشة بيضاء شبيهة بأجراس الكنائس ولقد عجبت كثيرا لرؤية تلك الاشجار التى لم أر غراسا بلغ فى طوله وضخامته مبلغها وكان لى منها أعظم درس فى الدويبات الصغيرة التى تنخر الاشجار وتنفذ فى مسامها . ووقتئذ تذكرت صديقنا الدكتور زنباكو باشا حيث أنه مغرم بمشاهدة الاشجار وطالما تشكى من الاهمال فى تعهد الاشجار المغروسة على حافتى شارع الاهرام فى مصر وعدم العناية بها . أما تلك الدويبات فمنتشرة انتشارا عظيما حتى أنها لم تقنع فى مؤنتها بتلك الاشجار على عظمها ووفرتها بل تجاوزتها الى الخشب التى أقيمت حجازا على حافتى الطريق مع أنها يابسة ومنتقاة من أجود الاخشاب وأصلبها كيما تعيش زمنا طويلا ولكن أنى لها ذلك وقد وجدت فيها السرفة مأوى طيبا وطعاما سائغا ! وقد سبق أنى رأيت هذه الدويبات الصغيرة فى مصر تنخر الاشجار وتتخذ فيها المنافذ حتى تأتى عليها فاذا ما كبرت

كانت (الفراش) الحيوان الذى يعرفه المصريون (بأبى دقيق) وكان يشق على نفسى رؤية تلك الاشجار العتيقة مصابة بهذا الضرر العظيم والتلف الجسيم حيث كنت أرى بعضها وقد تأكلت فروعه ولم تبق الا جذوعه والبعض مصابا فى شق سليما فى شق آخر وأكثر تلك الاشجار اصابة وأبلغها تلفا ما كان قريبا من النهر أو مدانيا للطريق ولست أدرى اذا كان هذا الداء تسرب الى الغابات أم لا لعدم وصولى بعد اليها . أما المنظر فكان بعد ذلك طبيعيا محضا والطريق موحشا طامشا وكانت الجبال عزلاء من النبات لعلو كعبها عن الاشجار أما شكلها فكان عموديا بحيث يتعذر تسلقها . ولا أحسب أن هنالك موجبا للعناية بذلك الطريق الذى يمتدّ الى مسافة ٧٥ كيلو مترا الا جمال المنظر وحسن المخبر وأما الاهالى الذين كنا نصادفهم فى طريقنا حتى النمساويين المترئسين أشغال الطرق فمؤدبون جدًا وهم يسلمون بكل خشوع واحترام على من يمرّ بهم من جماعة السياح

وفيما نحن سائرون قابلنا ضابط من (الهوسار) ممتطيا درّاجة وخادمه يسعى خلفه وفى أثرهما مهران يعدوان وراءهما ويقتفيان أثرهما خطوة بخطوة كأنهما يعقلان وقد ظنّ الحوذى أن هذا الضابط انما يدرّب نفسه على ركوب العجلة ولكنا رأينا ونحن فى منعطف الطريق جملة من العربات تحت ملاحظة بعض الجاويشية وفى مقدمها بعض الجنود يقودون عددا من المهارى لانحسب الا أنها من نتاج اصطبلات الحكومة . ولقد ارتاحت نفسى وانشرح صدرى برؤية تلك الامهار حتى اذا هى أجلت مرّت نحو الاربعين عربة من عربات الجهادية وهى تابعة لجملة آلايات من الجيش وفيها بعض المهمات مثل السرر الحديدية وكمية من العلف كالتبن والشعير . وكل عربة من هاتيك مخفورة باثنين من جنود الآلاى التابعة له العربة وهؤلاء أدّوا لنا السلام العسكرى فرددناه لهم بكل احترام

أما خيولهم فكان يزيد حسن نظافتها فى كمال رونقها وجمال منظرها والكثير منها كان حوريا خفيف الحركة وبالجملة فتلك الخيل المسوّمة جديرة لعمر الحق بأن تكون أنعم بالا وأسعد حالا مما رأيناها فيه . وبعد ماجاوزنا تلك العربات

التى كانت تتزحزح جانبا اذا نحن مررنا بجانبها وتدع لعربتنا من الطريق المكان الفسيح رأيت بغتة على بعد مائة متر تقريبا نسرا كبيرا هابطا على غصن شجرة وكان حجمه لايقل فى نظرى عن حجم الحدأة ثلاث مرّات فاقتربنا منه حيث كان مهبطه على بعد ستة أمتار من الطريق على أن ذلك النسر الملوكى لم تأخذه روعة الفزع بل ولم يبد لذلك حراكا فدلفنا اليه بضع خطوات وأوقفت العربة .

وحيث لم يكن عندى تصريح بحمل السلاح هناك سألت الحوذى هل يتاح لى أن أطلق مسدسى لما كنت عالما بشدّة قانون بلاد البوسنة وصرامته بخصوص حمل السلاح وسبب ذلك ان الاهالى قوم شديدو العبوس لايكاد يفتر لهم ثغر وهم يميلون بطائعهم الى المشاغبة والمحاماة عن نفوسهم بأية وسيلة كانت غير أنى لعدم ضياع الفرصة وانصرام الوقت أخرجت مسدّسى من قرابه والنسر لا يزال ثابتا وهو منا على قيد عشر خطوات . ولقد كنت أظن اننى أصيبه بسهولة ولكن كيف ذلك والنسر أبلغ منا حيلة وأشدّ مكرا اذ تدارك نفسه وطار حتى نزل الى الشاطئ الثانى من مجرى النهر فكان حينئذ قصيا على السهم بعيدا عن الرمية . والخطأ انما كان من اتباعى الذين اشتدّت ساعتئذ جلبتهم وعلت ضوضاؤهم وأما أنا فقد بلغ منى الأسف على ضياع الفرصة وافلات تلك القنيصة بما أن هذا النسر كان جميل المنظر حسن المرآى وهو يشبه العصفور المسمى (كوندور) بأمريكا الجنوبية اسود الاديم غير أن رقبته كاسية بالريش الأبيض وكذلك برجليه قطعتان بيضاوان ولقد رأيناه يصف على النهر صفيفا ويضرب بخافيتيه على سطح الماء بكل خفة فعلمنا انه من النوع الذى يغتذى بالاسماك . أما الحوذى فلاجل أن يخفف أسفى ويهون على بعض الشئ أكد الى اننا سنجد فى طريقنا كثيرا من مثله فاستأنفنا السير مستمرين فى طريقنا فرأينا عن بعد محلا من الخشب (كشك) فدل لنا اننا فى منتصف الطريق وهو عبارة عن محطة تستبدل فيها الخيول التى أخذت شوطها بغيرها وهو أودة بسيطة وأمامها بعض طاولات (مقاعد) من الخشب وعليها سقف مرفوع خشبى أيضا ليمنع ما عساه ينزل من المطر وغيره عن جماعة السياح الذين يريدون الايواء الى هذا المكان للراحة أو تناول

شيء من الطعام ووجدنا عند صاحبه ثلاثة أقفاص فيها عصافير كبار وكنت أعرف ما في اثنين منها — وهي من النوع الذي يشدو ويتغنى — وأما العصفور الذي في القفص الثالث فقد علمت أنه من صيد تلك البلاد ولكن لست أدري من أي الانواع هو . وقد تناولنا في الفرصة التي كانوا يعدون فيها العربة فنجانا من الشاي وأكلنا خبزا ومربة . وقد لج صاحب المحل وشدد كثيرا في أن أعاود زيارة تلك البلاد في السنة المقبلة . وليكثر من رغبتي كلمني في صيد السمك وأخبرني بأنهم يصطادون في هذه النقطة من صنوفه صيدا عظيما ربما زاد عن الصيد المشهور في بلاد «الايكوس» ثم استطرد فتمدح بذكر الصيد والقنص هنالك وأكد لي بوجود (التيس البرى) الوحشي والنسور والدببة الصغيرة وغير ذلك . وبعد ما مكثنا زهاء العشرين دقيقة ركبنا العربة ثانيا وسرنا متجهين الى «بنيالوقا» وكنت مشوقا لتحقيق ما أخبرني به ذلك الرجل (البقال) الذي غادرناه من أن في امكاننا عند مغيب الشمس رؤية سرب النسور في تلك المنافذ المنحوتة في الصخور التي هي أوكار ملوك الهواء (النسور) وأوكانها . وكلما مشينا رأينا الطريق يزداد وحشة وبعدا عن التنظيم حتى كان يعد طبيعيا محضا . والحق أن يد التمدن لولم تلمس تلك البقاع لكان من الصعب الشاق على الانسان المرور بين تلك السلاسل من الصخور التي يكون تلاصقها ومجاورتها لبعضها المئات من المغائر الرحبة والكهوف الواسعة التي يمكن أن يسع الواحد منها خمس عشرة نسمة . وكان لون تلك الصخور بسبب هطول الامطار الكثيرة عليها قاتما قابضا . وعند مغيب الشمس تنبهت الى رؤية النسور حسبما أخبرني ذلك الرجل وحدقت نظرى فرأيت حقيقة على باب كل نافذة نسرا . وعلى سبيل المفاكهة والتسلية أردت أن أذعرها فعمدت الى الغدارة (المسدس) وأطلقت ثلاث طلقات على ثلاث نوافذ فرأيت جملة من النسور تبلغ العشرين قد حلقت في الجو فزعة مع تلك الثلاثة التي زجرتها من منافذها بالسهام زجرا ومن الأسف اننا لم نكن مستعدين لهذه القنيصة حق الاستعداد ولم يكن بين أيدينا مايلزم لها . ثم اننا تركنا الجزء الجبلي الممتلئ بالسهول والحزون الى سهل منبسط وسرنا في واد ممتد حتى مررنا (بكروبته) وقد أرانا الحوذى في تلك

النقطة تلا مملوكا لاحد البكوات فى «بنيالوقا» وزعم أن فى هـذا الجبل أيسر الصيد وأحسنه فى كل بلاد البوسنة ولكن مع الاسف لم يكن صاحبه بالذى يعرف الصيد أو يميل له . وبعد ماسرنا طويلا دخلنا واديا يظهر انه مملوك (لبيك) آخر وهذا الوادى محفوف بغابتين عظيمتين وهما مملوكان للحكومة . ولما كانت الحيوانات التى تصاد فيهما قليلة فهى انما تعوّل على الانتفاع من تينك الغابتين بقطع أغصانهما وقلع جذوعهما لاتخاذ الاخشاب منها . وفيما نحن سائرون سلم الحوذى على رجل من (البوسناك) لابس للطربوش وكان حينئذ يتوضأ فسألت الحوذى عنه فأجابنى بأنه أحد أنجال (البيك) صاحب هذه الاراضى . ولقد رأينا الجزء المنزرع فى تلك الارض صغيرا بالنسبة لما لم يزرع منها . ثم مررنا بأربعة بلاد صغيرة وما كدنا نفوتها حتى شاهدنا عن بعد (بنيالوقا)

فى مدينـــة بنيـالوقا

واذا هى بلدة قد استعاضت فى طولها ماتركت من عرضها اذ كانت ممتدّة فى واد قليل العرض عظيم الطول . ولما ان دخلناها لم نجد فيها الا شارعا واحدا آخذا من أولها الى آخرها فسرنا فى ذلك الشارع حتى انتهينا الى آخره وهناك كان الفندق الذى نزلنا به واذ دخلنا من بابه رأينا صحنه (كحوش) الدواب فى بلادنا اذ كان مرتعا للدجاج والبط والديكة وقد استودعت زواياه بعض عربات النقل . فأخذنا صاحب هذا الفندق الذى كان ينتظرنا على بابه الى محالنا فرأيت الغرفة التى خصصت لى واسعة وفيها سريران وكانت غرفة محسن بك على عكسها وليس فيها غير سرير واحد أما الخدم الثلاثة فقد اكتفوا باودتين ثنتين . وبعد ان استرحنا قليلا وغسلنا وجوهنا نزلنا قاصدين الى غرفة الطعام للعشاء ولكن أين هى تلك الغرفة التى حاولنا معرفتها فلم نجد لها فى ذلك النُّزُل عينا ولا أثرا ! حتى هدينا اليها فى جهة يفصلها عن الفندق شارع ! وفضلا عن ذلك فقد رأيناها أودة قذرة وهى مضاءة (بالكربيت) فطلبنا من الطعام ماتهيأ فقدّمت لنا قطعة من اللحم المطبوخ (بالصلصة) وكانت لذيذة الطعم فأمّلنا أن كل الصحاف تكون على هذه النسبة . وبعد العشاء صعدت

الى غرفتى التى كانت مضاءة (بالشمع) ليس الا . وأنه ليشق على الانسان أن يبصر فى مثل تلك الردهة الواسعة التى لا يقوى عليها مثل هذا السراج الضئيل

ولما كنت مضطرا الى الكتابة فى رحلتى طلبت الى الخادمة أن تأتينى (بلمبة) بترول فأظهرت اهتماما بهذه المهنة غير أنها جاءت بعد (بلمبة) فى منتهى القذارة. ويعلم الله أن تلك الخادمة نفسها كانت بعيدة عن الحسن بريئة من الجمال ولكيلا تدع من القبح شيأ كان صوتها جهيرا مزعجا

جلست أسطر فى رحلتى ولكن لما كنت أجد من التعب لم استطع مع الكتابة صبرا فلم يسعنى الا تحرير صحيفتين فقط . ثم عمدت الى النوم ولكن لسريان الضوضاء الى أذنى من سكان الردهة المجاورة لى لم يتيسر لعينىّ الاغماض وخشيت أن أبيت كذلك طول ليلى . ولكن ولله الحمد غلب سلطان النوم على جيرانى فنمت كذلك آمنا مطمئنا

وفى الصباح نهضت لازور البلد كما هى عادتى فرأيت أن أسأل أولا بوّاب النُزُل الذى كان رث الهيئة قذر الثياب عن المعاهد التى يجمل بالسياح أن يزوروها فأجابنى بأنه لم يكن هناك مايختلف اليه ويتفرج عليه سوى دير (الدومينكان) وفابريقتهم . وان هى وايم الله الا احدى الاحابيل التى ينصبونها للاهالى والشراك التى يتصيدون بها الناس (للكنيسة) واذ علمت أنه ليس ثمت مايهمنا زيارته صممت على الذهاب الى (المحطة) للاستفهام عن مواعيد القطارات وأخذ التذاكر أيضا

وحيث كانت تلك (المحطة) قريبة من الفندق ولا حاجة بنا الى الركوب اليها سعينا لها مشاة وهناك وجدنا واحدا من مستخدميها نحيف الجسم فأشار لنا بأصبعه الى جدول السكة ونصح لنا بأخذ قطار الساعة السابعة صباحا الذى يصل الى «اجرام» حيث تكون الساعة ثمانية والدقيقة ٣٢ ثم جلسنا الى كراسىّ من الخشب ننتظر - بغير رجاء - مرور عربة حيث ان هذا البلد خلو من العربات اللهم الا تلك المركبات المبسوطة المملوكة للفنادق والمخصوصة بالبعض من سراة الاهالى . فطلبنا أخيرا الى صاحب الفندق أن يحضر لنا عربة وهو عهد بهذه

المأمورية الى رجل هنالك خلق الشباب ينتعل فى قدميه (مركوبا) أخنى عليه الدهر حتى غادر فيه للريح مخترقا ومجالا

وان هذا الرجل لاشبه مايكون بزمرة اللصوص . وإنى وان كنت رأيت من الفقراء والمساكين عددا كثيرا الا أنى لم أر فيما بينهم من هو على شاكلة هـذا الرجل ولا فى هيئته وصورته

استدعاء فجائى مخيف

وكان ذلك فى وقت الصباح ولما ان كان هنالك وقت فسيح قبل الغداء عدنا الى الفندق وصعدت الى غرفتى لأستريح هنيهة . وبينا أنا كذلك سمعت انسانا يقرع البـاب فأذنت له فى أن يدخل واذا به رجـل من رجال البوليس طويل القامة فاستغربت مفاجأته على غِرَّة لغير مناسبة فسألته ماذا تريد منا ؟ ولأى شئ جئت الينا ؟ فخاطبنى باللغة الصربية . ولما لم أفهم من كلامه مراده استحضرت محمدا أغا ليترجم لى خطابه ويبين غرضه فعرفت أنه رسول المحافظ الينا ليطلبنى وصاحبى الى دار المحافظة فى الساعة الثالثة بعـد ظهر هذا اليوم !!! فقلت له إنا طائعون ومتقبلون لهذا الامر وسنكون ان شاء الله فى دار المحافظة عند الوقت المحدود ثم ذهب الرجل على ذلك . وأمّا أنا وصاحبى فقد استغربنا ذلك الطلب الذى فاجأتنا به المحافظة وإنه لامقتضى هنالك ولا سبب ! ولكنى أدركت أن الخادمة التى كنت طلبت منها (اللمبة) بدل الشمعة قد رأتنى وأنا أكتب على ورق أبيض كبير فأبلغت المحافظة أو من يبلغها ذلك اننا من الجواسيس لأن المستخدمين فى تلك البـلاد الصغيرة لهم مع الحكومة معاملة من هذا القبيل . ثم اننا بعد أن تناولنا طعام الغذاء قلت لمحسن بك يلزمنا الآن أن نلبس (البدلة الردنجوت) لنكون على هيئة رسمية . واذ ذاك أمرت الخادم الجركسى بأن يحرس متاعنا ويحتفظ به وخصوصا الصندوق الذى أودعنا فيه نقودنا اللازمة لسياحتنا . وفى ذلك الوقت نفسه أرسلت صورة ثلاثة تلغرافات منها واحد لسراى الامبراطور وآخر لسفير الدولة العلية والثالث لسفير الدولة البريطانية . وذلك لاجل الاحتياط مما عساه يحصل لنا من الحبس

أو المشاكل . وقبل أن تحين الساعة الثالثة بخمس دقائق ركبت أنا وصاحبى العربة وأخذنا معنا محمدا أغا الذى تركناه بعيدا عن المحافظة ليراقبنا و يلاحظ من بُعدٍ مار بما يحدث لنا . ولما أن وصلنا الى دار المحافظة استقبلنا سبعة من رجال البوليس فنزلنا ووقفنا ننتظر حينئذ ماذا يقولون لنا . ولكنهم لم يقولوا شيئا حتى مضى ربع الساعة ونحن واقفون على سلم الباب ولم نر منهم شيأ سوى أنهم كانوا محيطين بنا احاطة السوار بالمعصم فتكلمت معهم باللغة النمساوية قائلا . ياأيها الناس انا كنا مطلوبين فى الساعة الثالثة وهاهى الآن ثلاثة وربع نخبرونا عن سبب ذلك الطلب وانى

لقد أسمعتُ إذ ناديتُ حيا * ولكن لاحياة لمن أنادى

ولما لم يفهم خطابى أحد منهم وهم جميعا سكوت لا ينطقون عدلت عن الكلام باللغة النمساوية الى الكلام باللغة التركية لعلهم يفهمون فقلت . ياهؤلاء أليس منكم رجل يتكلم باللغة التركية ؟ فنهض من بينهم رجل هرم قائلا . ان المحافظ الذى هو قومندان البوليس ومأمور المركز بل وكل شئ لم يأت حتى الآن وعن قريب يجىء . فترجيته فى أن يأتينا بكراسى نجلس عليها ريثما يحضر ذلك المحافظ حيث لم نكن من الذين قتلوا ولا أجرموا أى جرم كان فقال أمّا اذا كنت تريد الجلوس والراحة فعليك بالقراقول مشيرا الى أودة قذرة . وما كاد يتم حديثه حتى قدم جناب المحافظ (بسلامته) واذا هو رجل عبوس الوجه وعليه تظهر أمارة الكبرياء والعظمة وكان يمشى وراءه حين دخل دار المحافظة كلب كبير وما أدراك ما المحافظة ؟ هى طبقة واحدة لاتحتوى الا على أربع غرف !

ولما مضى خمس دقائق من دخوله أرسل الينا من يادينا اليه فدخلنا عليه وكان جالسا الى مكتبه وكلبه تحت قدميه وعلى يمينه مسدس . فالتفت وراءنا فوجدت عسكريا واقفا على باب ذلك المحل . ثم رأيت كل شباك عليه كذلك عسكرى يحرسه أما المحافظ فقد أوقفنا أمامه كما يقف المذنب المجرم وأخذ يسألنا من أنتم ؟ ومن أين جئتم ؟ ولاى شئ أتيتم بلاد البوسنة والهرسك ؟ وكم يوم أقمتم فى تلك البلاد ؟ ولما كنت موجودا أمام أحد موظفى الحكومة فى بلد كانت

آخر محطة فى بلاد البوسنة لم أر بأسا من التصريح له باسمى الحقيقى . بل رأيت أن الواجب فى هذا المقام هو ذلك . فقلت له أنى أنا الامير محمد على باشا شقيق الجناب العالى خديو مصر . وان هذا صاحبى محسن بك راسم نجل أحد كبراء بلادنا ومن ذواتها المقيمين بالاسكندرية . فلم يصدق بكلامنا ولم يقتنع بتعريفنا بل طلب منا أن نبرز اليه (البزابورت) فقلت له انى حينما سألت فى (فينا) عما اذا كان يلزمنا استصحاب (بزابورت) فى بلاد البوسنة أو لا فقالوا لاحاجة لكم به ولا داعى اليه حيث ان بلاد البوسنة تابعة لبلاد النمسا . فخاطبنى بشدّة وحدّة قائلا أما البزابورت فانه يلزم دائما فى بلاد البوسنة والهرسك . فقلت له اذا كان الحال كذلك فلم أباحوا لنا الدخول فى الحدود ؟ على أنهم قد سألونا عندها عن مدة اقامتنا فى تلك البلاد وسألونا أيضا عن عنصرنا ولم يسألونا عن ذلك البزابورت ولو كان كما تدعى لازما فى كل بلاد البوسنة والهرسك دائما لكان أول مسؤل عنه ولكان أولى بالسؤال من كل ذلك !!! كل هذا والرجل لم يقتنع فأدركت أنه لايزال يسىء الظنّ بنا و يفهم أننا من أولئك الجواسيس أوشىء نحوذلك . وعندئذ قلت له ياجناب المحافظ إنى لمستغرب من أنكم تعاملون بهذه المعاملة القاسية أناسا لايمكنك أن تستدل على شرف نفوسهم وكرم عنصرهم بأكثر من أنهم يسافرون المسافات القاصية والاقطار النائية فى أعلى درجات السكة الحديدية خصوصا اذا كان معهم ثلاثة من الخدم يركبون فى الدرجة الثانية التى يركب فيها أكابر مستخدمى الحكومة النمساوية و ينزلون فى أرفع الفنادق و يتخيرون أعظم غرفها ذلك فضلا عما يلوح على وجوههم من سمات المجد وعلامات الحسب . أفلا يكون كل هذا دليلا على أنهم من أشراف الناس وخيرهم ؟ فقال ان بلاد (المسكوف) كثيرا ماأرسلت من أعاظم رجالها وامرائها لتثير عواطف الاهالى الصربيين الموجودين فى بلاد البوسنة وتهيجهم ضدّ الحكومة . أليس من الجائز أن تكونوا من مستخدمى الدولة العلية وأنها أرسلت بكم لمثل هذا الغرض ؟ وانه اذ لم يكن لديكم مايثبت لى حقيقةً من أنتم ولا ما يستدل به عليكم فلا يمكننى أن أطلق سراحكم ولا ان أخلى سبيلكم . اللهم الا اذا جاءنى نبأ من البلاد التى سحتم فيها

يفيد أمركم وبين لى حالكم . وقد ساعدنى حسن الحظ اذ وجدت وأنا أفتش فى جيبى ورقة قد كتب فيها سفير النمسا بباريس لمستخدمى الكمارك النمساوية ينهاهم فيها عن أن ينقضوا المتاع المختص بشقيق سموّ الجناب الخديو الذى يسافر متسترا باسم (محمد رستم بك) وفى معيته محسن راسم بك وثلاثة من الخدم . فقلت له ألا يكفيك فى اثبات ماذكرنا أن أقدّم لك ورقة من أحد رجال حكومتك بل من أعاظم مستخدميها ؟ فقال نعم . فأبرزت له تلك الورقة التى ما كاد يراها حتى خلى سبيلنا . وعند ذلك قلت له ياسعادة المحافظ انك قد بلغت منا ماأردت وانا كذلك نحب أن نبلغ منك ما نريد وليس ذلك الا أن ننصح لك ألا تتسرع فى أمرك وألا تشطط فى حكمك فلقد أفضى بك تسرعك الى أن تعامل الأمراء معاملة الوضعاء وأن تؤاخذ البرآء مؤاخذة السفهاء أرأيت لما أمرت بحضورنا فى الساعة الثالثة بعد الظهر هل تأخرنا أو جئنا طائعين . أينبغى اذن أن يحيط بنا سور من عسكرك كأننا اقترفنا اثما أو أتينا منكرا . ذلك فضلا عن وقوفنا منتظرين نحو ثلث الساعة أمام الباب فوق المرمر ولا يخفاكم ألم الانتظار خصوصا فى ذلك الموقف البارد ! ثم أمرتم بالدخول وكانت أودتكم غاصة بالكراسى أفلا كان يجمل بك ونحن ضيوفك وقوم غرباء من بلادكم أن تأذن لنا بالجلوس وأبيت الا أن نقف منك موقف المذنبين وأن نكون عندك فى مكان المجرمين . وما أدراك أنى بسبب مالحقنى من الكدر أشكوك الى حكومتك النمساوية التى نشأت فيها وتربيت فى بلادها وأعرف عظماءها وكبراءها وأخى صاحب العائلة الامبراطورية وفوق ذلك فانى أعرف ابن والى بلاد البوسنة (الكونت كَلَّى) وكان معى فى فصل واحد أيام التعليم فى فينا فكنت تساء من وراء ذلك اساءة بالغة وتضر ضررا عظيما . ولكن لتعلم أننا من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ولكى أبين لك أنّ العفو من شيم الامراء وأخلاقهم وأنهم أقرب الى الصفح منهم الى الانتقام فقد عفوت عنك وسامحتك . ثم غادرناه ورجعنا الى الفندق ضاحكين من تلك الحادثة التى فاجأتنا على غير انتظار

———

ختام السفر والرجوع الى مصر

وفى صباح اليوم الثانى حيث كانت الساعة السابعة ركبنا القطار الذى وصلنا فيه الى «اجرام» عاصمة بلاد «قرواسيه» ومن تلك البلدة ركبنا القطار الذى يوصلنا الى «تريستا» ومن هناك أبحرنا قافلين الى أوطاننا . وهنا يجدر بى أن أشكر من صميم فؤادى (سعادة صديقى المفضال محسن راسم بك) حيث أنه حفظه الله رافقنى فأحسن المرافقة ووافقنى فأجمل الموافقة وقد شاطرنى كل ماعانيته من تعب ومشقة وما عاينته من راحة وسرور فى طول ذلك السفر الذى أسفر لى عن حسن شمائله وجميل خلاله وكرم أخلاقه ورقة عواطفه ولا غرو فذلك ما كنت أنتظره من شاب مهذب قد تربى فى حجر النعمة والسعادة ونشا فى مهد الفضيلة والكمال ؟

كلمة الختام

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ يامن بيدك الهداية والعصمة من الغواية أبرأ اليك ياذا القدرة والطول من القوة والحول وأعوذ بك من نزعات اللسان ونزغات الجنان واستمنحك العفو عن سَقَط الكلام وفلتات الأقلام فلسنا من أهل البراعة فى اليراعة ولا من عياهل التعبير فى التحبير وندعوك أن لاتؤاخذنا ببادرة ولا تعاملنا يامولانا الا بما أنت أهله من العفو والكرامة فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة .

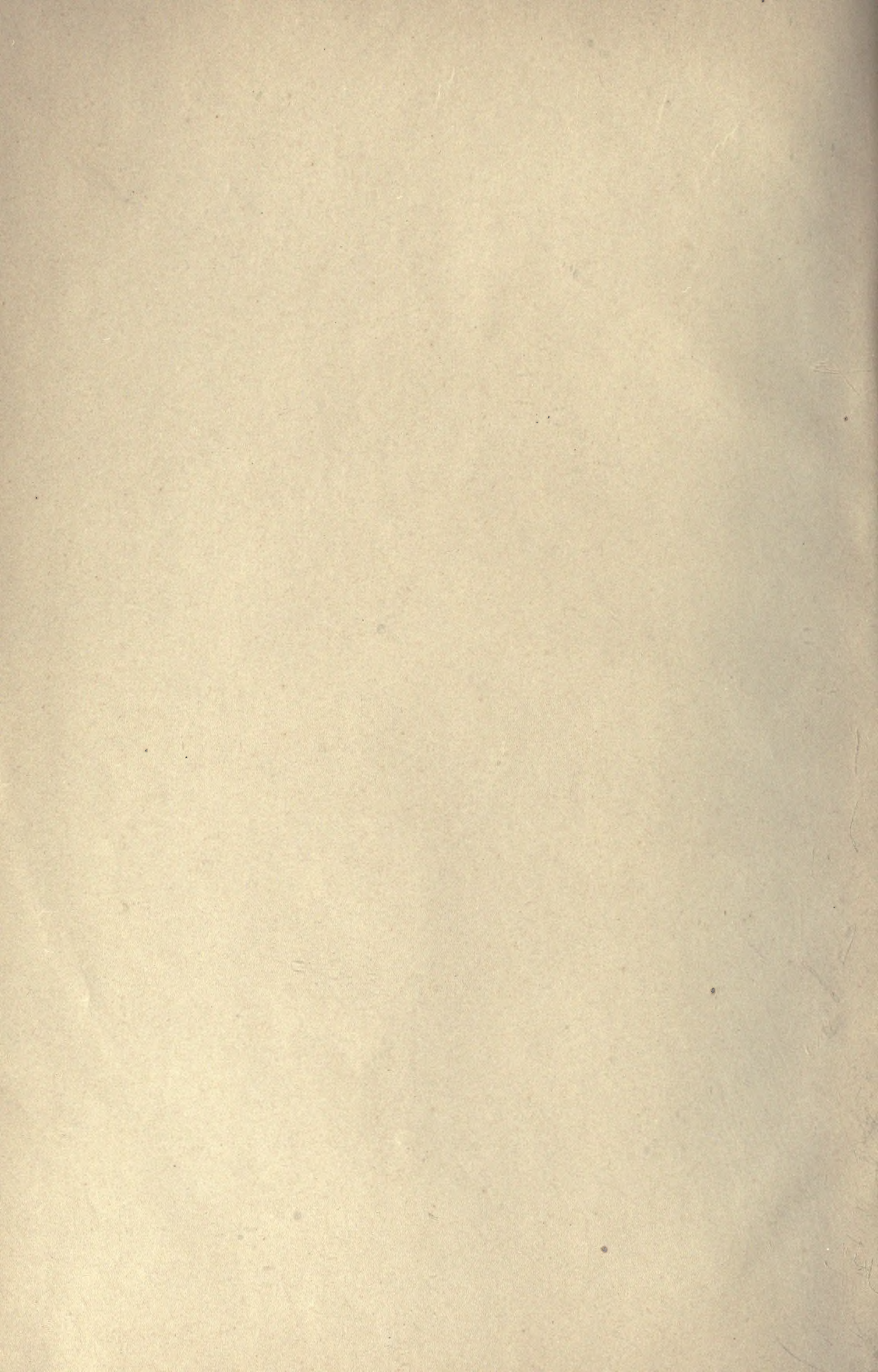
اللهمّ انا نحمدك حمد من أرسلت اليه من جميل نعمائك وأفضت عليه من جزيل آلائك ماضعف عن تقفية ذكره وعجز عن توفية شكره فانك يا ربنا أجلّ وأعلى من أن تُفِيد من ثناء عبدك على عطائك ورفدك وأن فيما أثنيت على نفسك تعالت أسماؤك مالا يبلغ العباد حدّه ولا يستطيعون على مرّ الادهار عدّه فأنت مفيض الخير ومنك الثناء وأنت مصدر الحمد ومن لدنك العطاء وأشكرك بما تعيننى على أدائه من صيغ الثناء والحمد على ماقويتنى وهديتنى الى سياحتى هذه التى لولا معونتك وفضلك مانقلت اليها قدما ولا جرّدت لها قلما ولكن أبى احسانك سبحانك الا أن أنلت مسلما يحب المسلمين مأموله وساعدته بمحض كرمك على أن يطالع بنفسه أحوالهم ويكتنه أخبارهم ويتبحث آثارهم فاذا وجدهم فى عافية وسرور شاركهم فى جذلهم وشاطرهم فى سرورهم وان هو رآهم على مالا يحب من وهن العزيمة وانشقاق العصا قاسمهم كدّهم وساهمهم كدرهم وعلى كلتا الحالتين اذا هو رأى بعضهم على الطريقة المثلى عضدهم وحثهم . أو ألفى غيرهم على المحجة السوآى نصح لهم ووعظهم بقدر ماتمكنه الاحوال وتسمح له الظروف . ولقد ارتحلت الى بلاد البوسنة

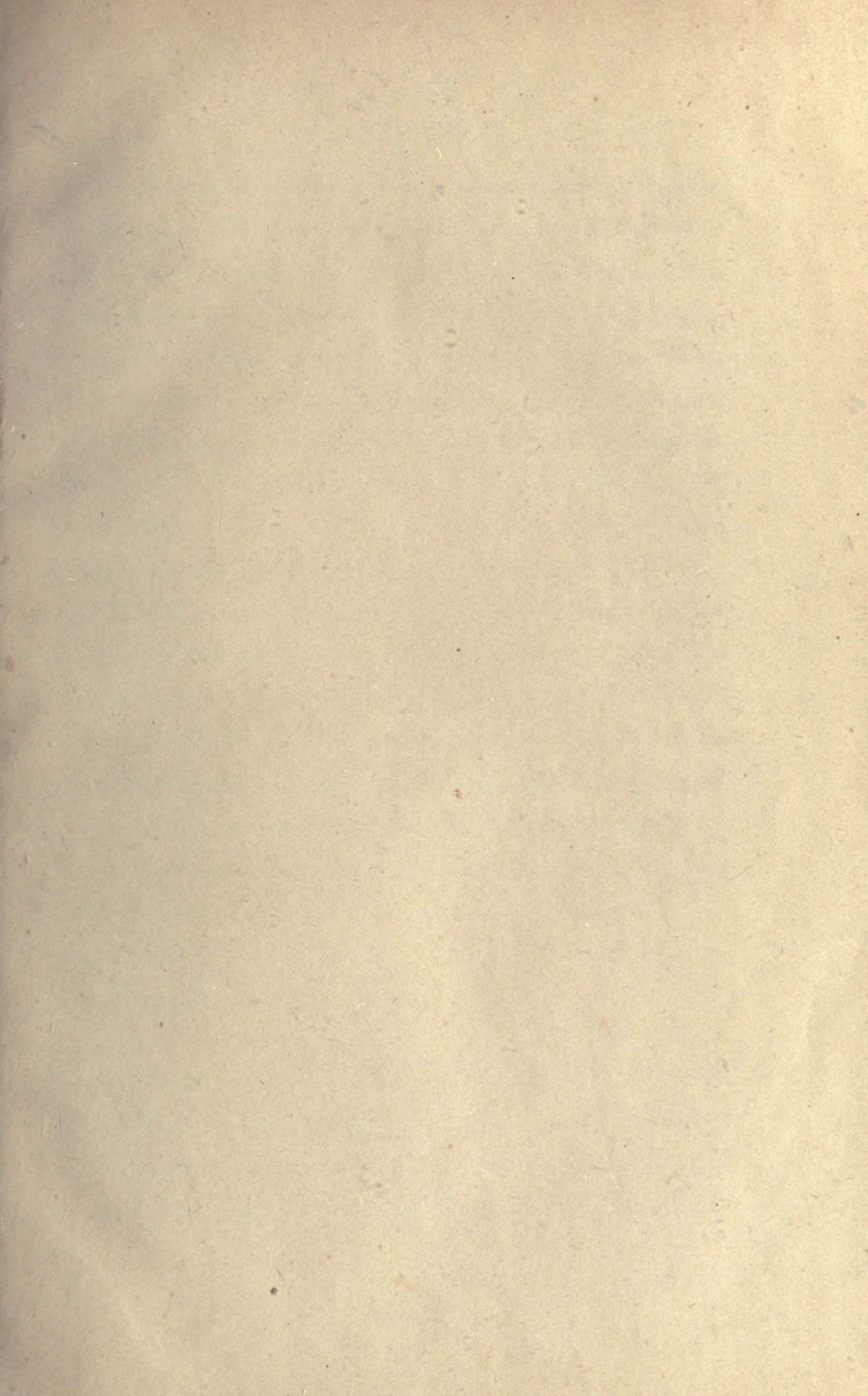
فرأيت ولله الحمد مسلمها على أحسن ما يكون من القوة والمنعة والحب لدينهم والتمسك بأخلاقهم والتشبث بعوائدهم . نعم وأن يكن داهمهم صرف الليالى وعكست حظهم الايام فأصبحوا مسودين لسواهم بعد ما كانوا كرماء سادة وأمسوا مسوسين لغيرهم بعد ان كانوا عظماء قادة فلا شك ان حفاظهم وأباء نفوسهم وشمم انوفهم وأخذهم بعصبيتهم ستدين لهم ان شاء الله رؤس الايام وتسمو بهم بحول الله الى أرفع مقام . على أن الذى يَجمعُ أعواد المسلمين ويستجلى عوائدهم وأخلاقهم سواء فى مشارق الارض أو مغاربها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم لايتمارى فى أخذهم بتلك الاسباب وسيرهم على هذه المبادئ حتى كأنما رمى بآمالهم أجمعين عن قوس واحد

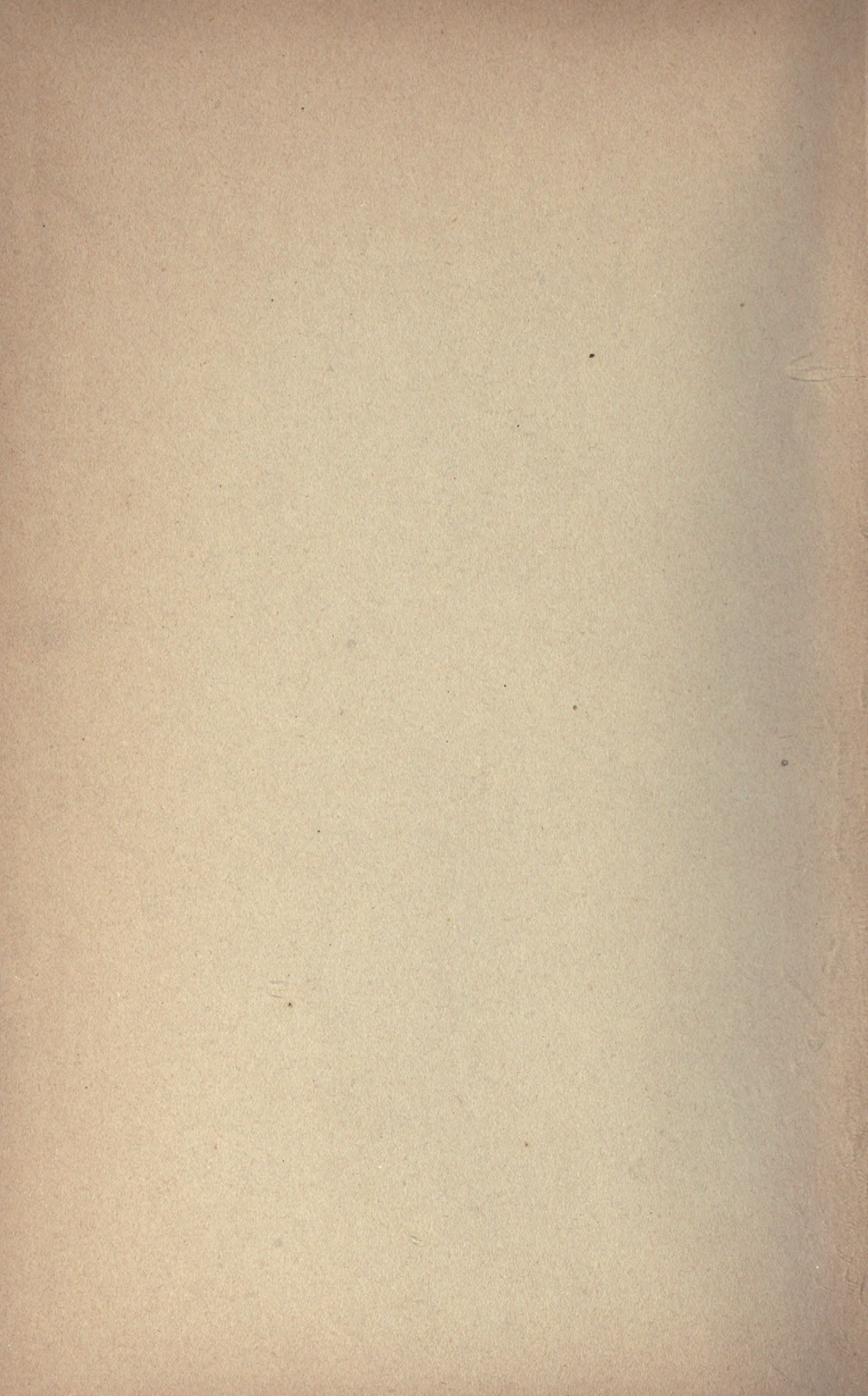
ترى المسلم الهندى مثلا شغفا بأخيه المغربى متمنيا له السعادة . كما ترى البوسنوى كلفا بأخيه العثمانى راجيا له السيادة . (انما المؤمنون إخوة) لايثنيهم عن ذلك الولاء الكبير والاخلاص المتناهى اختلاف الاجناس وتباين العناصر . بل ولاشط الاقاليم وبعد ما بين المواطن اذ (لا وطنية فى الاسلام)

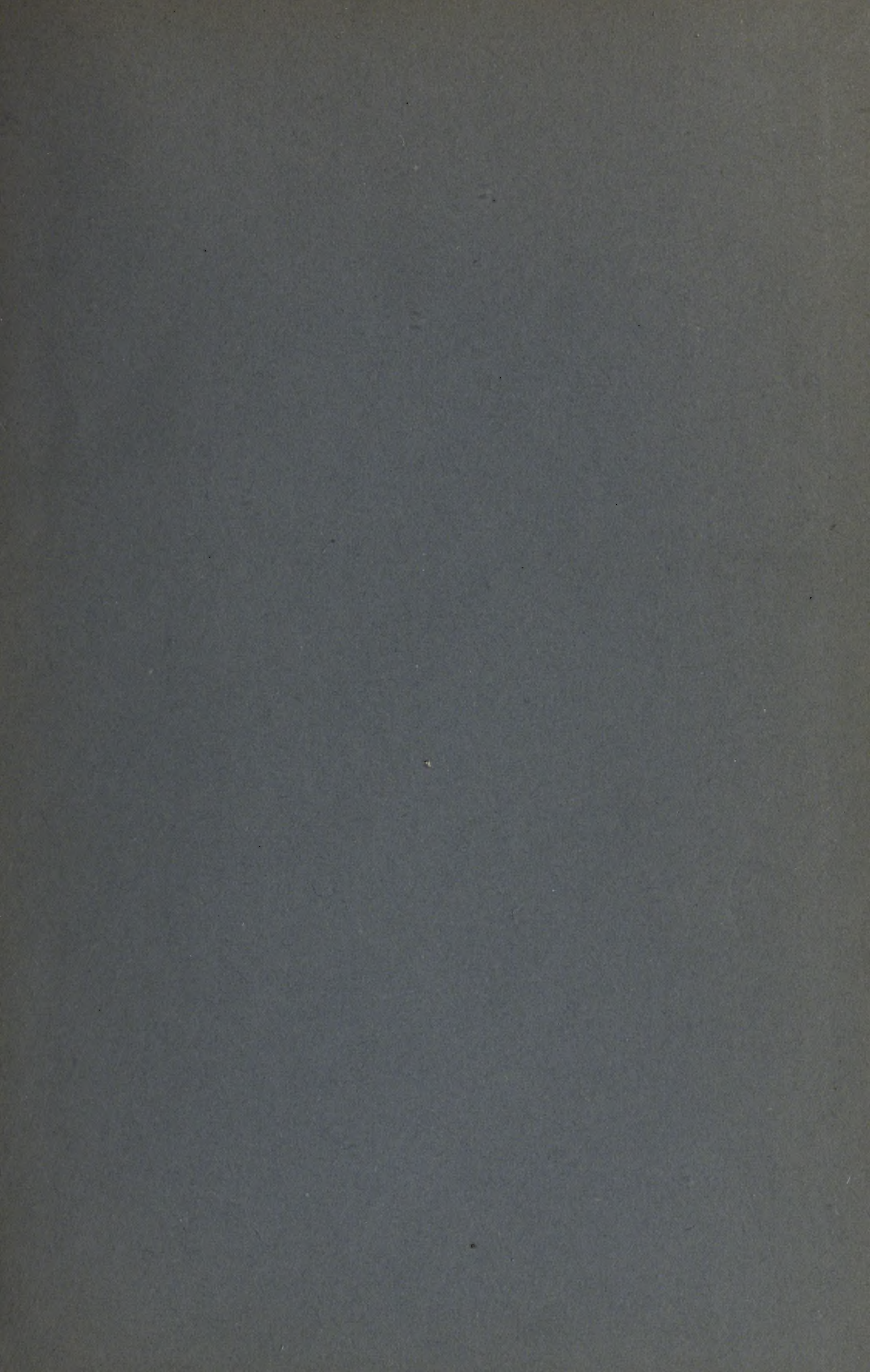
كأن بلاد الاسلام وهى متبعثرة على سطح المسكونة منقسمة شعوبا وقبائل قد تماسكت جوارحها واتصلت جوانحها بأسلاك الكهرباء وما ذلك الا سر من أسرار الله وصل مابين تلك الافئدة المتنائية بأوثق رباط حتى كأنما الاسلام جسم واحد . تدب فى أعضائه النامية روح واحدة فاذا لكز صدره فى المشرق تصدع جانبه فى المغرب أو اشتدّ ظهره فى دار السعادة قويت شوكته فى دار السلام إيه لو رأيت أيها المسلم الكلف بدينه معشر المسلمين يتنسّمون الأخبار عن أحوال اخوانهم النائين وانتظار كل قبيل لبريد الاسلام يَتَلَمَّسُون الانباء ويتحسّسُون زورة المسلم القصى حتى اذا هم ظفروا بمقدمه احتفوا به والتفوا حوله يَتَلَقَّطُون كلمه ويَتَسَقَّطُون لفظه يُسائلونه عن عشيرته ويستنبئون منه أحوالها عساهم يسمعون خبرا جديدا يكون علالة لاكبادهم الحرّى وأفئدتهم المجروحة . أولعلهم يشيمون بارقة أمل فى نهوض الاسلام بعد ما أوهت قوائمه الليالى وفتّت سواعده الايام أسألك اللهم وأبتهل اليك أن تجبر كسرهم وتقوم أمرهم

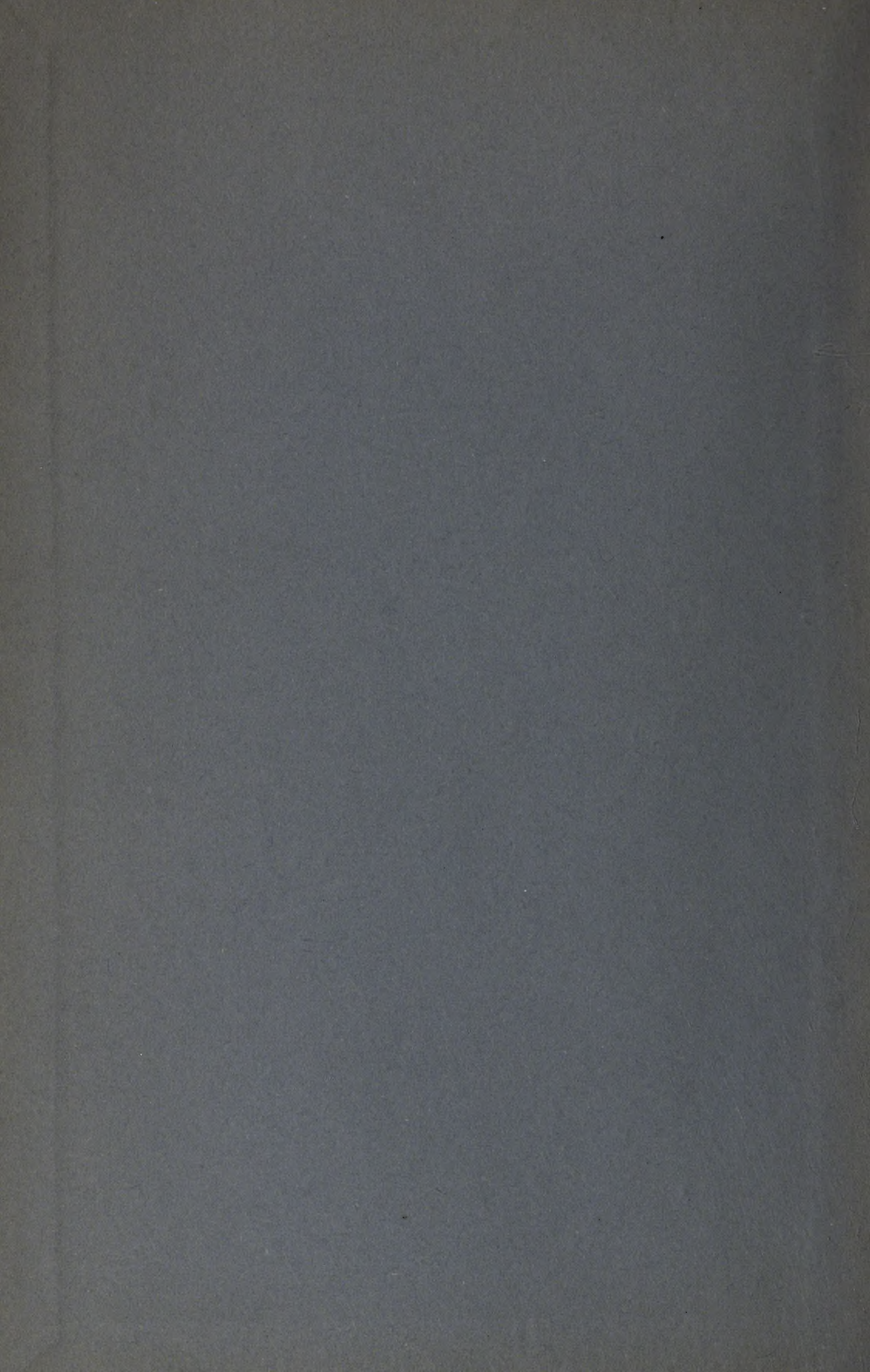
وتجمع كلمتهم وتؤلف بين قلوبهم وتثبت أقدامهم وتؤيدهم بروح منك
وأن تقويهم على العمل والجدّ حتى يقوموا بأودهم ويفوزوا فى هذا المعترك
معترك الحياة وأحفظ اللهمّ ملوك الاسلام والامراء الكرام رافعى منار الدين
وحماة الشريعة الغراء وأيد سلطانهم وأعل كلمتهم وقوّ شوكتهم وصولتهم
وأدم ملكهم ودولتهم خصوصا صاحب المقام الاسمى ووارث الخلافة العظمى
حامى حمى الملة والدين وناشر لواء العدل بين العالمين رب التاج والصولجان
مولانا الغازى فى سبيل الله السلطان عبد الحميد خان لازال النصر عقيده وحليفه
والعز ضجيعه وأليفه مادام لسان فى فم انسان وأحرس بعينك التى لاتنام
صاحب السموّ مؤسس أركان الحرية وموطد دعائم السلام الساهر على اصلاح
امور أمّته والعامل على ارتقاء شؤن رعيته من عم فضله وعدله القاصى
والدانى خديو مصر مولانا عباس باشا حلمى الثانى متع الله رعيته برعايته
وحقق لها ما فى أمنيته وصل اللهمّ وسلم على مهبط وحيك ومبعث رسالتك
وحجتك على عبادك الداعى الى الخير بأمرك والشفيع عندك باذنك سيدنا
محمد النبى الامىّ وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه وجاهدوا معه فى الله
حق جهاده وباعوا مهجهم فى سبيله وضحوا نفوسهم لمرضاته حتى قويت دعامة
الدين وعز مكانه وامتدّ سلطانه . اللهمّ اهدنا الى طريقهم وأجْرنا على سنتهم
واقبل صالح أعمالنا واعف عن زلاتنا واحشرنا برحمتك فى زمرتهم حتى نظفر
بالغاية من حسن الختام












DT
107
.2
M8A3
1906